
د . عائض القرني
عاشق
شبكة
مشكاة

ابتهال العاشقين

فجّـــرتُ في آفـــاقه إبـداعي   وجعـــلت نحـــو ديارهِ إســراعي
ما هزّنـي لغةُ العيونِ وما هوتْ   نفـسي ليـالي الأنـــسِ والإمـــتاعِ
وهجرتُ أوديةَ الغرامِ تعطّـــفًا   ما عادَ لي في الهـجرِ والأوجــاعِ
وهتفتُ باسمِ اللهِ جـــلَّ جلالهُ   فضممتُ مِن رَهبِ النِدا أضلاعي

له الأسماء لكن الحُسنى ، وله الصِفات ولكن العُلا ، كُن له عبدًا ، يكُن لَ وليًّا ، فهو الله لا إله إلا هو هل تعلم له سميًّا ؟ مَن الذي خلق الأرض والسماء ؟ مَن الذي أجرى الماء وبثَّ الضياء ، وأرسل السناء ، وتفرّد بالبقاء واختّص بالكبرياء ؟ مَن الذي هزم الجنود ، وسحق الحشود ، وأفنى عادًا وثمود ؟ مَن الذي أبرم الحب ، ودكدك الدول ، وهى السُبل ؟

لأنه واحد حوى الأسماء أجملها ، ومِن الصفات أكملها ، اطّلع على السرائر ، وأحاط بما في الضمائر ، تفرّد بالبقاء ، وكتب على غيره الفناء ، لا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به الأفكار ، فعّال لِما يريد ، هو أقرب إليك مِن حبل الوريد .

نحن يا ربنا أتيناك طوعًا   وقفنا بالبـــــاب وقـــفة فقرِ
فاعـفُ عنّا فإننا قد زللنا   وتجوز عن ضعفنا أنت تدري

يداه سحّاء ، جاد بالنعماء ، وكشف الفقر والبأساء ، الكل يسألونه ، والجميع يطلبونه ، ما مِن دابةٍ إلا أعطاها ، ولا حاجةٍ إلا قضاها ، تسأله المخلوقات ، وتقصده الكائنات ، وتطلبه البريّات بكافة الحاجات ، وشتّى الطلبات مع اختلاف اللغات ، وتعدد اللهجات ، وتنوّع النغمات ، فيعطي مَن سأل ، ويعلّم مَن جهل ، ويهدي مَن ضلّ ، ويردّ مَن زلّ ، يشفي مِن العِلل ، ويعافي مِن الخَلل :

كرمٌ يعبُّ الخلقُ مِن غدرانه   وسخـــاءُ ربٍّ عزَّ فيسبحانه
والله لو أنّ السماءَ صحـيفة   لم تحوِ مدحي في جلالةِ شأنه

µ

هذا كتاب لمخاطبة المشاعر ، وإثراء البصائر ، يشحذ الهمة لطلب العِلم وللقراءة الواعية الرشيدة ، أوردت فيه الآية الكريمة ، والحديث الشريف ، وعددًا مِن أقوال السلف ، وذكرت فيه تجارب لأهل العِلم ، وعشاق القراءة ، ورصّعته بقصائد وأشعار ، وأثريته بخبرات وتجارب .
وقصدت أن يكون حافزًا على القراءة ، باعثًا لحماس ، مسليًّا للمستريح مِن التطواف في الكتب ، ولم أقصِد أن أفصّل في هذا الكتاب الطُرق المنهجية لطلب العِلم وللقراءة ، ولم أخصه لذِكر الإرشادات العِلمية لتنمية مهارة القراءة ، وضوابط اختيار المقروء ؛ تاركًا ذلك لدراسات أخرى ، وإن كنت أثريت الكتاب ببعض الخبرات والنصائح ؛ لكنني أردت أن يكون الكتاب فيض مشاعر ، ونفثات خاطر ، أشبه شيء بقصيدة موحية مِن شاعر عاش معاناة ، أو كاتب انصهر في تجربة ، لأخبر أخي القارئ بشجوني عن الكتاب ، وقصتي مع الكتاب ، في رحلة طويلة صحبت فيها الكتاب ، وأجلسته على صدري ، ووسدته ذراعي ، ووضعته في حضني ، فحدثني وأفرحني وأحزنني وأضحكني وأبكاني ونفث في روعي أحاديث لا تُنسى ، فصار أوفى صديق ، وأقرب قريب ، وأجمل رفيق ، نسيت معه متاعب الحياة ، وغص ص العيش ، وكدر الأيام ، فدمل جراحي وواساني ، وخفف مِن معاناتي ، وطرد الوحشة عني ، وأذهب ظمأ الهجر مِن نفسي ، وعوّضني عن كل قاطع ، وعزّاني عن كل مخالِف ، فملأ ساعات عمري بالفوائد والشواهد والفرائد ، فأنا معه في رياض غنّاء، ومسرة عامرة ، وجلسة ماتعة ، وحديث شائق ، ومناجاة صادقة ، نما بصحبة الكتاب عقلي ، وتهذّبت به روحي ، وزاد به يقيني وإيماني فصرت أكرر حديثه وأقلّب أردانه ، وأسير بين خمائله ، لا أملّ كلامه ، ولا أتضجر بمصاحبته ، فقد رفعتُ بيني وبينه الكلفة ، وتمت الألفة ، فكتم سرّي وشدَّ مِن أزري ، وأعانني – بعد الله – على صلاح أمري .
ولن أطيل عليك في هذه المقدّمة حتى لا أشغلك عن رياض مؤنقة ، وحدائق غنّاء بين صفحات هذا الكتاب لتجد – إن شاء الله – الظِل والماء والخضرة والرّي والجمال والمتعة ، مع أساطير الحرف ، وشدة الكلمة ، وروّاد الفكرة ، وأعلام المعرفة ، فهيّا نبحر معًا في زورق الإبداع عبر فصول الكتاب .

د . عائض القرني

قِصة (العاشِق) مِن البداية

في قرية (آل دلال) في جنوب المملكة العربية السعودية ، وُلِد هذا العاشق ، والقرية التي وُلِد فيها قرية نائية في سفوح الجبال الخضراء التي تعانِق السحاب ، ويشاجيها الضباب ، ويحف بها مِن شرقها وادٍ جميل به مزارع البُر والذرة الخضروات ، وربما جرى نهر إذا غزر المطر ؛ فتسمع خرير الماء مع هدأة حركة أهل القرية ، وإذا جرى السيل سمعت له هديرًا يسمعه الناس وهُم في فرشهم مستقبلين النوم .
أما صباح القرية فهو أجمل صباح ؛ حيث أنه تستقبل الشمس ببيوتها المرتفعة ، فتظلّ أشعة الشمس مرسلة على أطراف القرية كما ترسل الحسناء جدائلها على أطرافها ، فما أشبه قرية (آل دلال) بقول أبي الطيب :

نثرت ثلاث ذوائبٍ مِن شَعرها   في ليلةٍ ، فأرت ليالي أربعا
واستقبلت بدر السماء بوجهها   فأرتني القمرين في وقتٍ معا !

وفي الصباح الباكر يقوم أهل القرية على أصوات المؤذنين ؛ فيصلّون صلاتهم ، ويقودون نيرانهم حيث القهوة والحليب وخبز البُر مع ما يصحبه مِن زبد وسمن وعسل ، ومع طلوع الشمس تبدأ القرية بتوديع أهلها ؛ فالمزارعون يذهبون إلى مزارعهم ، والرعاة يسرحون بغنمهم والباعة يرتادون الأسواق ، ومَن عنده مهنة مِن بناءٍ أو نجارة يذهب إلى مهنته .
وهذه القرية فوّاحة الأردان ، زكية الرائحة بالريحان ، والشيح ، والكادي ، والشذاب ، والسنّوت ، والحَبَق ، والنعناع ؛ فهي رياض من سندس أخضر ؛ خاصةً في فصل الربيع ، فلا تسمع في كل صباح إلا هديل الحمام ، وشدو الطيور ، ونغم القُمري ، وصيحات الهدهد .
وأهنأ ليالي هذه القرية إذا أويت إلى فراشك في صحةٍ وأمنٍ وعافية ، سمعت هول الأمطار ، وتساقطَ الثلج والبَرَد ، وأصواتَ زخّات الغيث على سقوف المنازل فلا تقوم في صباح ذلك اليوم إلا والحقول بحيرات مِن الماء ، والسواقي غدرانًا ، والأودية أنهارًا جارفة .
وأهل هذه القرية لا يعرفون الملل ولا السأم ولا القلق ، فأوقاتهم ما بين صلاةٍ أو عمل في المزارع ، أو اجتماع على خير أو سَمَر على أُنس ؛ أما رجال القرية فيجتمعون في غالب الليالي كل ليلة عند أحدهم فيسمرون على قصص الآباء والأجداد وأخبار السابقين ونكات المجتمع وهُم يحتسون القهوة والحليب ويتناولون العشاء الذي تصنعه النساء في البيت من لحم سليق وخبز وأرز .
وأهل هذه القرية كرماء ؛ فمن العار عندهم البخل حتى كأنه كفر ، ولم لم يجد أحدهم إلا قوت يومه لقدّمه ، بل إنهم يقترحون ضيافة الضيف ، وويل لمن أغلق بابه في وجوه القادمين ، حيث يصبح مسبوبًا مهانًا مِن أبناء عشيرته ، ولهم في الكرم أشعار وأخبار ، حتى يقول أحدهم لضيوف قادمين :

والله إني ودي تجلسوا عندي   ما نذبح إلا ذا سمينة وغالية

ويقول الآخر :

مرحبًا وأهلين يا أشرف القبائل   ما نمل الضيف ولو يقعد سَنَة

وأهل القرية بينهم تآلف وتعاون في مهمات الحياة ، فإذا دخل القرية ضيف ، أقبلوا إلى بيت المضيف بشيء مِن البن والسمن والدقيق ، وتكون الضيافة مناوبة بينهم إذا لم يكن هذا الضيف مِن أقارب أو أصهار صاحب البيت ، فيتولى هو بنفسه ضيافتهم ، وإذا حصل بذر الحبوب وحرث الأرض ؛ تعاونوا معًا رجالاً ونساءٍ وكذلك وقت الحصاد ، فهذا يحرث وذاك يبذر وآخر يأتي بالطعام ، وهكذا .

وتمتاز القرية بطيب الهواء وصفاء الماء ، مما قلل نسبة الأمراض بها ، حتى إنني أعرف بعض أهلها جاوز المائة سنة وما ذهب لعيادة ، وما لقي طبيبًا ، ولا تناول علاجًا ، لأن أكلهم صحي ، ما خالطه كيماويات ، ولا مواد حافظة ، مع كثرة حركتهم ومشيهم ، وهذا أكسبهم قوّة غير عادية في الأبدان .
وإذا أقبل الليل في القرية زحف المزارعون إلى بيوتهم ، وسمعت ثغاء الغنم وخوار الأبقار ، وأصوات الرعاة في جمال طبيعة خلابة مع غروب شمس تكاد أشعتها الذهبية تتقاطر سحرًا ، وتذوب هُيامًا ، وتسيل رقةً وعذوبة ، فيا لها مِن أيام جميلة ، وليالٍ لذيذة مرّت كأحلام الربيع ، وطيف الكرى ، ما ذكرها هذه العاشق – وقد جاوز الأربعين – إلا كاد يذوب شوقًا :

وما شرَقي بالماءِ إلا تذكّرًا   لماء به أهل الحبيب نزولُ

ولا يذكر هذا العاشق من طفولته الأولى إلا ذكريات مع أبيه وأمه وجدته وجيرانه ، أما أبوه فهو شيخ القبيلة ، وعمدة البلدة ، متديّن معتزّ بدينه ، حريص على الفرائض والنوافل ، صارم في التزامه ، قوي الشخصية بين عشيرته ، يخافه هذا العاشق ، ويحسب لغضبه ألف حساب ، وربما استصحبه على صغره في المجالس ومجامع القبيلة ، فيستمع صخبًا وضجيجًا لا يدري ما معناه .
وأما أمه فهو بِكرها ، وهي تُدعى به وتعتزّ ، وتحبه كل الحُب ، وتنقُل أخباره ، وتتحدث معه في مجالس النساء ، أخذ منها حُبها للشِعر ، وق
درتها على الحديث وإيراد القصص ، وأمّا جدته لأبيه ، فقد صاحبها مدة طويلة لكرمها وأناقتها ، والعجيب فيها عقلُها الراجح ، واهتمامُها بزيها وطهرها ونظافتها ؛ فهي غاية في زكاء الرائحة والاهتمام بالمظهر . وأما الجيران فكبار وصغار ورجال ونساء ، والكل له مع هذا العاشق حكاية طريفة ، أو قصة نادرة .
و هذا العاشِق جريء مِن صُغره ؛ ربما جَمَعَ الأطفالَ و هو في السادسة فخطبهم ، و هو لا يعرف ما يقول !
و يذكُر أنّه صفّ أبناء قريته مِن أقرانه ، و صلّى بهم على شاةٍ ماتت في القرية صلاة الجنازة بزعمه ، و دعا لها بالرحمة ، و الأطفال خلفه يؤمّنون ، فلمّا سمِع الكِبار بهذه الحادثة ؛ صارت نكتة الموسم و مَزحة القرية .
و هو مشاغِب يحشر نفسه في كلِّ صغيرةٍ و كبيرة ، فإذا رأى رجلاً أجنبيًا وقف وسأله عن اسمه ، وماذا يريد ، وإلى أين يذهب ؟! و كثيراً ما يجمع أبناء القرية و يعرُض معهم (عَرضـة القرية) بقصائد يحفظها ، حتى إنه لمّا مات أحد رجال قريته و اجتمع الناس بعد دفنه عند أهله المصابين في أبيهم ، ظَنَّ أنه لابد مِن حفل طربٍ و لعب ، فجمع الأطفال و أخذوا يرقصون و ينشدون فطرده أقاربه مِن البيت لأنه خالف المناسبة و عكس الأمور ! وجوّ القرية يساعد على الحديث والجرأة وارتجال الكلمات ؛ لوجود الشعراء وأصحاب الأخبار والحكايات القصص .
وفي ذاكرة هذا العاشق صور لا تُنسى وذكريات لا تُمحى مِن مشاهد القرية ؛ فهي ساعات لكنها سنوات مِن الشوق والصبابات ، لأن العمر نسبي للمحب ، فكم مِن ليلة حب أقصر مِن دقيقة ، وكم مِن يوم هجر أطول مِن سنة ؛ فالزمن يخضع لنظرية النسبية التي ربما أخذها أنيشتاين مِن ابن زيدون حيث يقول :
إن يطُلْ بُعدك يا ليلى فكم   بتُّ أشكو قِصر الليل معك !

وهذا العاشق إذا عاد بذاكرته إلى أيام الطفولة هدّه الشوق ، وأضناه الحنين ؛ حيث يذكر مِن أيام طفولته صورة الصباح المشرق الوضّاء يملأ القرية نورًا وبهجة ؛ فيقع شعاع الشمس على السفوح الخضراء كما تقع المجوهرات على صدر الحسناء / ويذكر مشهد خرير ماء الساقية العذب الذي يصب في غدران القرية ، كأن الفضة أذيبت في أحواض مِن البلور والمرمر ، فلا تسمع إلا خرير الماء على الصخور الملساء ، مع هفيف نسيم أرق مِن العافية ، وأهنا مِن البُشرى .

ومشهد اليوم الممطر في القرية مشهد لا يُنسى ؛ فالسماء ربما ابتسمت ابتسامة المغضب ببرقٍ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، مع دويّ انفجار الرعد وصخب هائل للصواعق ، يسرع بعدها الناس إلى بيوتهم منتظرين الغيث المدرار . ومشهد حقول البُر تتمايل بالسنابل مع طلة الصباح كأنها في يوم عرس أو في مهرجان انتصار ، ومشهد حقول الذرة بقاماتها الباسقة كأنهن غوان مترفات أو جوار منعّمات ، ومشهد آلاف الطيور وآلاف الحشرات لها زغردة ووصوصة ووزوزة وهمسات ونغمات تملأ الفضاء بنشيد المحبة ، وتعمر الجو بغناء السعادة ، كل ذلك كان يغري هذا العاشق فتجده مسرعًا بين الحقول ، متجولاً بين المزارع ، يطارد عصفورًا ، ويصيد حمامة ، ويسعى وراء فراشة ، ويتأمل نحلة ، وينصت إلى هدهد ، ويتعجّب مِن قُمري .

ومِن أين يأتي الهم والغم لهذا العاشق وهو لم يدخل بعد معركة الحياة ؛ بل هو بين عيشة راضية ، وأنس بأقران ، ودلال مِن أهل ، وفسحة في وقت ، وجمال في طبيعة ، فهو ما بين بيت أنس متديّن رضيّ ، وحقل أخضر لعوب وتلّ مائس معشب وجبال تائهة فاتنة ورابية ساحرة خلابة وغدير صافٍ عذب وطيور مغردة وسواقٍ هائمة وبساتين ملتفة خضراء ؟!

مِن أين يأتي الحزن لطفل ما سمع بإسرائيل ، ولا بجبروت الاستعمار ولا بغلاء الأسعار ولا بالأمراض المزمنة ولا بثورة الخبز ، ولا بمكائد الأعداء ولا بحروب المستبدّين ؟! .. طفل أخذ مِن أبيه العصامية والمراجل والتدين ، ومِن أمه الأمل وسعة الخاطر ، ومِن قريته الشاعرية والعواطف الحية ، استفاد مِن بيئته دروسًا ما قرأها في جامعة ، ولا تعلمها على أستاذ ، أخذ مِن جبال قريته علو الهِمة ، ومِن سهولها البساطة والتواضع ، ومِن حقولها عذوبة الكلمة ومِن طيورها نظم الشِعر وصنع القافية ، يتذكر هذا الطفل والديه وإخوانه وهُم يحفون بنار موقدة في قرية مطيرة ، حيث تصنع القهوة والشاي ويخبز الخبز ويطبخ اللحم في حكايات سمر وقصص يتمنى – الآن – عودة ليلة واحدة مِن تلك الليالي ، بعدما نقلته الأيام إلى حياة الصخب والضجيج المشاغل .

وقد تعلم هذا الطفل في بيته قبل الدراسة سورًا مِن القرآن الكريم وبعض الأذكار ، فكان يحضر مع والده الصلاة في المسجد ويسمع خطبة الجمعة دون أن يعي – كثيرًا – مضامينها ، إ أنها خطبة مكتوبة قديمًا مكررة ، وكان يسمع أهله وهُم يخبرون بقدوم العيد ، فيظن أنّ هذا العيد شخص قادم أو شيء غريب عجيب له جسم وهيأة ! .

وكان في القرية رجل يجيد فن القصص والحكايات والنكات ويحفظ القصائد ، فإذا كانت وليمة أو عزيمة أو مناسبة حضر فلا تسمع إلا الضحك الانبساط مِن حُسن مزاحه وخفة روحه ، وأهل هذه القرية مشهورون بخفة الروح ، وحب النوادر ، والتعليق على كل مناسبة وتحليل الأخبار . إن بعضهم ما تعلم ولا قرأ ولا كتب إنما هو مزارع أو راعي غنم ، وتجده يحمل المذياع ويسمع الأخبار ويعلّق على الأحداث بشيء مضحك منتقدًا تخاذل العرب ، مخبرًا بتوقعه للأحداث ، يحتجّ على الزعيم الفلاني ، ويمدح القائد الآخر ، ويلاحظ على جونسون ويثني على نيكسون ويلعن جولدا مائير ، ويخبرك بمخططات جمال عبد الناصر ، إلى آخر تلك القائمة ، ولكن المضحك غرابة التحليل والتعليق مِن رجل أميّ لا دخل له في الأحداث ، ولم يُطلب منه رأي ، ولم يُسمع له صوت ! .

عاش هذا الطفل العاشق بين أفراد قبيلته وكان يظن أن قريته هي الكون ، وأن أفراد القبيلة هُم عظماء التاريخ ، وأن هؤلاء الأشخاص هُم الذي يسيّرون أحداث الزمان ، وما ذاك إلا لضيق أفقه وصغر سنه .

وكان هذا العاشق يحضر العرضة الجنوبية في مواسم الأفراح والأعراس فيحفظ ما تيسّر مِن القصائد ، ويعجب مِن حركات الرجال ورقصهم فيظن في نفسه أنهم هُم نجوم الدهر وأبطال العالم خاصةً وهُم يلبسون الخناجر ويحملون البنادق ويُضرَب لهم الزير والزّلفَة والطبل ! .

أما كبار السن في القبيلة فهُم مغرمون بالمراجل والفخر والشرف ، وقد صوِّر لهم أنهم يمتازون على كل القبائل ، وهو شعور يحمله الكبار في كل قبيلة ، وهؤلاء الشيوخ الكبار يحدثونا عن أمجاد لهم قديمة مزعومة مِن الانتصارات الوهمية والمواقف البطولية وكيف أنهم بنوا لنا هذا المجد العظيم ، وخلّفوا لنا هذا الشرف الباذخ ، وويل لك ثم ويل لك لو رددت عليهم أو لم تصدّقهم أو شكّكت في بطولاتهم أو سوّلت

لك نفسك الاستهانة بهم وبأمجادهم الزائلة ؛ نعم عندهم كرم ولديهم شجاعة لكنهم يصادرون كل قدح لهم وهُم أرقى بزعمهم مِن كل قبيلة وهُم في ظنهم سادة الناس ، ومِن قصائدهم القبلية التي تدعو للإخاء بينهم :

ما للواحد إلا رفيقه أم باعه وإلا شراه

ومعنى البيت : نحن جميعًا إخوان ليس لنا بُد مِن الأخوّة ، إما أن يشتري الواحد منا أخوّة أخيه ووفاءه ونصرته وإلا باعه فلا إخاء ولا وفاء وعاد البائع بالعار والشنار .

وهؤلاء الكبار مِن القبيلة يصونك بتقديم حُب القبيلة على كل شيء ولو اقتضى الأمر منك أن تُقتل مِن أجل القبيلة وتصب دمك لنصرتها ، ولو ضد مسلم ولو في باطل ! ، يقول شاعرهم في ذلك :

يا سلام على ذا أسـخى دمي دونهم ما منّ به
وإيه يسخي دمه دوني نهار الصباح ولا يمنّه
خل ذا رفته وقت الرضـا وأن تجـامل منها

وكان هذا الطفل العاشق يذهب إلى عجائز القرية فيرحبون به ويذكرون له مجد أجداده وكرمهم وشجاعتهم ، ويبقى معهم الوقت الطويل يسمع الحكايات والغرائب . وكان مندفعًا إذا خلا له الجو فربما رمى الناس بالحجارة مِن على سطوح المنازل وربما رجم أحد أقرانه بحجر وهرب وربما عمل كمينًا لأحد القادمين مِن حفرة أو حبل فإذا سقط هذا القادم ولّى هاربًا ! .

ومرة قدِم أحد الناس مِن الغرباء فأخذ هذا الطفل صديقين له وترصدوا لهذا القادم وكان راكبًا على جمل فلما اقترب هو وجمله مِن الكمين وثب هو وزميلاه ومعهم قِربة مِن جلد فرموا بها وجه الجمل وهربوا فوثب الجمل خائفًا وسقط الرجل وصارت هذه الحادثة قضيّة مِن قضايا القرية .

ومرّة مِن المرات مرّ بقطيع مِن الغنم في القرية فأخذ قطعة مِن قماش ولفّ بها عيني خروف كبير حتى لا يرى شيئًا ثم ترك الخروف فأخذ الخروف يهرب في كل جهة والغنم تهرب منه ثم سقط الخروف مِن مكان مرتفع فأصابته رضوض وجراح حتى أنقذه صاحبه أما هو فقد ولّى هاربًا ! .

عاش هذا العاشق مع أخواله في قرية أخرى ما يقارب السنتين فكانوا يكرمونه ويمدحونه ويعجبون مِن مزحه ونكاته وإذا أتاهم ضيف دعوه وسألوه عن بعض النكات التي حفظها والقصائد القصيرة ، فيسمعهم إياها بلا خجل ولا وجل ، فيضحكون ويتعجبون وتمر الأيام وهذا العاشق يترعرع دون أن يمر به حدث في أهله يؤثر على نفسيته أو نموه ، فكل شيء مستقر والعيش هنيء والوضع مطمئن والحياة بسيطة بلا تكلف و تعقيد ، حياة سهلة منسابة ، الغذاء طبيعي والهواء صحي والقرية جميلة والطبيعة خلابة والعشيرة متعاونون متكاتفون .

غير أنّ هذا العاشق ما سلِم مِن وعكة مرض بعدما زارت أمه امرأة مشهورة بأنها (عائنة) وكان معافىً نشيطًا يلقي النشيد بجرأة ويمزح بثقة فرمته بعينها ! ، فبقي ستة أشهر يُداوى ويُقرأ عليه حتى شفاه الله ، وقد كاد يتلف ويودّع الحياة .

ومِن أجمل الذكريات في ذهن هذا العاشق سماع الأذان في قريته وهو يملأ فضاء هذه القرية الجميلة ويسري في ربوعها معلنًا دخول الصلاة هاتفًا بأهل القرية أن تعالوا إلى بيت الواحد الأحد تعالوا على بيت الكريم الجواد تعالوا إلى مصدر السكينة ومنبع النور ودار الهدى ، ولم يغب عن ذهنه – كذلك – مشهد الصلاة في القرية لأنه كان مشهدًا مؤثرًا خالدًا إذ أن أهل القرية لا يساومون في مسألة الصلاة بل الموت و ترك الصلاة ولذلك عاش هذا العاشق على المحافظة على الصلاة مِن صغره ، فبيته لا يقبل مساومةً في تأخير الصلاة فضلاً عن تركها ، والصلاة في ضمير هذا العاشق سيء يفوق الوصف ، ولأنه يحافظ على الصلاة مثل أقرانه مِن أطفال القرية فقد عاشوا بلا قلق ولا اضطراب ولا إحباط ولا يأس ؛ لأن الصلاة وقود لا يخبو ونبع لا ينضب ومدد لا ينتهي مِن الأمن والإيمان والأمل ولذلك يقول عز وجل { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } والويل كل الويل لِمَن لم يصلِّ ، الويل له مِن الوسوسة التي

ستنخر في إرادته ، والويل له مِن الغم الذي سيلازمه والويل له مِن الكبت الروحي الذي سيحطم أعصابه والويل له مِن الشقاء الذي سيحرق سعادته والويل له مِن سوء المصير ، إنه يعيش بِلا أمل ويمضي بلا رُشد فهو منقطع تمامًا مِن مصدر اليقين مبتور حقًا مِن حبل الرجاء ، لأن الصلاة فيها حبل يصل بين الفناء والبقاء والضعف والقوة والفقر والغنى ، بين فناء الإنسان وبقاء الملك الديان ، بين ضعف هذا المخلوق العاجز وقوة الجبار القهار ، بين فقر البد المحتاج البائس وغنى الجواد والكريم .

نشأ هذا العاشق في بيت يصلي وفي قرية تقدس الصلاة ، فمهما أخطأ فإنه لا يمكن أن يخطئ في تأخير الصلاة عن وقتها ، أما ترك فريضة واحدة منها طيلة هذا العمر فهذا هو المستحيل ، بل مجرد التفكير في ذلك جرم عظيم ومصيبة كبرى ونقمة محققة .

ولقد عرف هذا العاشق – بعدما كبر – لذائذ الحياة ومتع الدنيا فإذا هي لا شيء مع نعيم القلب وسعادة الروح ، فلا مال ولا منصب ولا دار ولا قصر ولا جاه يعادل ذرة مِن الاتصال بالله رب العالمين والسجود له والانطراح في محراب عظمته وتمريغ الأنف على عتبات ربوبيته – جلّ في علاه - .

و لما تُركت الصلاة عند البعض ضاعوا وانسحقوا وانتهت حياتهم فهم صرعى المخدرات وضحايا الجرائم وقتلى النزوات وعبيد الشهوات والآثام ، وحين تُركت الصلاة عند البعض عاشوا أصفارًا صغارًا بلهاء أغبياء بلداء لا هِمم لا أهداف لا مُثُل لا غايات لأن مَن قطع صِلته بالله قطع صلته بالحق والنور والسعادة والفلاح ، ونحن لا نريد موهوبين فجرة ولا أذكياء فسقة ولا عباقرة أنجاسًا ، نريد جيلاً ربانيًا طاهرًا زاكيًا مؤمنًا يملأ أمته وحياته نورًا وهدىً .

وهذا العاشق عاش حياة طيبة لا ثراءًا فاحشًا ولا فقرًا منسيًا ، فسلِم مِن رخاوة البذخ وميوعة الترف وانحطاط السرف ، لأن الثراء والإسراف طريق الانحراف إن لم يُعصم بإيمان وتربية صادقة ، إنّ الشاب المنعّم المدلل المترف إنما هو دمية في يد الشهوات ، ولعبة في كف الغواية ؛ يقول أبو العتاهية :

إنّ الشباب والفراغ والجِدَة   مفسدةٌ للمرِ أي مفسدةْ

إن الفراغ والمال وقلة الدِن معصية مركّبة وحياة معقدة مِن اللهو والضياع ؛ لأن القلب يموت فلا حياة ولا نور ، والضمير يغيب فلا وازع ولا رادع ولهذا تُدرِك سنة الله في عباده { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } .

سلامٌ على عهد الطفولة

سلام على أيام الطفولة ما أهنأها وأسعدها ، سلام على تلك البراءة والطهر ، يوم كان القلب صغيرًا نقيًا لم يعرِف الحقد والحسد ، يوم كانت النفس باسمة مشرقة لا هَم فيها ولا غم ، يوم كان الجسم غضًا طريًّا ، يوم كان الصبح جميلاً ببسماته الزكية التي كأنها هبت مِن الجَنة ، يوم كان الطير يحيّي الطفل في الصباح بنشيد المرح ويغنيه الحمام بقصيد الأمل ، يوم كان هذا العاشق يقفز مِن حقلٍ إلى حقل ومِن روضٍ إلى روض يطارد العندليب بقطعة في يده مِن الجِلد والكتان ، سلام على عهد الطفولة ويا ليت العمر كله طفولة ، آه ما ذكرتُ الطفولة إلا وضعتُ يديّ على كبدي ، وفاضت دموعي ، أين تلك الأيام التي كأنها أحلام ؟ :

أحمامة الوادي طربت وعادني   ما يشبه الأحلام مِن ذِكراكِ !

إن الطفل عصفور بريء في بستان الحياة ، ضحكة بشرى بمستقبل واعد وغدٍ مشرق ، وبكاؤه شكوى مِن ظلم الناس وقسوتهم وجمود عواطفهم ، وتمتماته برقيات سريعة مِن الحُب والأُنس ، إنه قطرة عذبة صافية باردة مِن سحاب البراءة والحنان ، وهذه القطرة تبقى بلا كدر حتى تختلط بالطين والتراب ، وكذلك الطفل يبقى بريئًا نقيًّا طاهرًا حتى تُدخِله الحياة في محرقة الفتن والإحَن والكَبَد والنكد فيصبح في قلبه كدمات مِن المصائب والشدائد والمكائد ، وتخرج نفسُه بجراحات الأزمات والكوارث . سيظل الطفل بلبلاً يغرّد على أغصان الليالي والأيام حتى يُحبس في زنزانة المشاغل والمتاعب والصعوبات .

وهذا العاشق كبر الآن وتجاوز الأربعين ، لكنه يحنّ حنين النوق ، ويتشوق تشوق الصب المغرم إلى طفولته ، خاصةً أن دستور الوفاء يوجب عليه حفظ عهد الطفولة كما قال أبو الطيب :

خُلِقتُ ألوفًا لو رحلتُ إلى الصِبا لفارقت شيبي شيبي موجعَ القلبِ باكيًا !

لكن ماذا يقول هذا العاشق وقد كبر ؟ ومَن ينصفه مِن الأيام ؟ مَن ينتقم له مِن المصاعب والأزمات ؟ مَن يبكي معه عهد الطفولة ؟ عهد الفراشة المرحة على الزهر ، عهد النخلة المترنمة بآيات المحبة ، عهد العصفور يقفز على غصون التين وينشد أغاني الوصل والهجر واللقاء والفراغ ، يبلل ريشَه ندى الطل ، ويغسل جناحه رذاذُ مطر الربيع الطلق ، عهد الشيوخ الكبار يحتسون القهوة ، وينشدون الشعر ، ويستمعون لأطراف الحكايات وأعجب القصص ، عهد العجائز يتحلقن في الشمس يخبرون الأطفال بأخبار الأجداد وغرائب النوادر والنكات :

بكيت على الشباب بدمع عيني فما أغنى البكاء ولا النحيبُ
ألا ليت الشباب يعـود يــومًا فأخبره بِما فعل المشــيـب !

آه ما أحسن عهد الطفولة ، حيث لا هم ولا حزن ولا إحَن ولا فتن ، وما أجمل عصر الشباب حيث النشاط والقوة والأريحية وحيث إشراق النفس وعلو الهمّة وارتفاع منسوب الأمل .

إن الشباب هو وجه الصباح ليوم العمر وإطلالة البدر في ليل الحياة ، ولكن من يضمن بقاء الشباب بل بقاء الحياة كلها ؟! لقد ذكرت كلام أحد الغربيين وهو يقول : " إن الحياة قصيرة منغّصة .. " فقلت سبحان مَن له لبقاء وحده وكتب على غيره الفناء والانتقال إلى دار الجزاء .



الفصل الأول
إنـه المعشوق

هو معشوق أهلِ الريادة ، ومحبي التميز وشداة الإبداع ، هذا المعشوق لا صدّ في محبته ولا هجر في القُرب منه ، بل أُلفة دائمة ، وصِلة مستمرة فصحبته توصلك منبر المجد وتصعد بك في سلم الكمال ، وتعرج بك في درجات التفوق .
مسكين مَن لم يعشق الكتاب ، ويألف صحبته ، ويأنس بقربه إنه إنسان ما عرف أعظم معشوق : (العِلم) ..



يقدّم هذا الفصل مدخلاً في فضل العِلم وأهميته وفضله وآدابه ، والترغيب فيه والحث على الاستزادة منه وسبل الوصول إليه ، كما يسلك الضوء على القراءة وأثرها على الفرد والمجتمع ..

فضل العِلم

كثرت الآيات والأحاديث وأقوال السلف في الحث على طلب العِلم وبيان فضله ؛ ومما ورد في ذلك ما يلي :

قال تعالى : { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }

وقال : { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }

وقال الله جل وعلا : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }

وقال سبحانه : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ }

وقال جل وعلا : { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ }

وقال : { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

وقال الرسول ρ " مَن يرِد الله به خيرًا يفقهه في الدين " وعن أنس قال : " قال رسول الله ρ : مَن خرج في طلب العِلم كان في سبيل الله حتى يرجع " .



وقال ρ : "مَن سلك طريقًا يلتمس فيه عِلمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة " .

وعنه ρ أنه قال : " الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذِكر الله تعالى ، وما والاه ، وعالِمًا ، ومتعلّمًا " .

وعنه ρ أنه قال : " إن الله وملائكته ، وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جِحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلّمي الناس الخير " .

ومِن الآثار الواردة في ذلك عن السلف :

قول معاذ τ : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قُربة .

وقال أبو الدرداء τ : مَن رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله .

وقال الشافعي : طلب العلم أفضل مِن النافلة .

وقال القرطبي : طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل .

وفي هذا الفصل أقوال ومواقف تشحذ همة الراغب وتثير المتميز النجيب .



أمجاد العِلم

ذهبت الدنيا وأهلها وبقي العلم وأهله ، فنيت الجيوش وبادت الدول وبقيت كتب العلماء تروي مجدهم أبد الدهر ، انظر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وتراثه الخالد الذي هو أنفع للناس مِن تراث دولة بني أمية وبني العباس والدولة التركية ، كلامه يُقرأ في كل بيت فتاواه حية في مجالس العلماء ، كتبه تزين المكتبات ، حتى في عصر الانترنت يدخل اسمه مِن أوسع الأبواب ، ومثله كثير مِن علماء الإسلام فالمجد الخالد إنما هو في اتباع الكتاب والسنة والتفقه في الدين ، أما الحطام والقصور والدور فهي لهوٌ زائل وعَرَض مضمحل ، فاجتهد في تعلم العلم النافع ، واسأل أهله واجلس معهم وطالع كتبهم ، فإن مَن أحب القوم حُشِر معهم ، وانظر إلى مجد أحمد بن حنبل ومكانته في قلوب الأمة جيلاً بعد جيل وقارنه بملوك عصره المعتصم والواثق والمتوكل تجد البون الشاسع مع العلم ؛ فأحمد بن حنبل عاش فقيرًا في بيت مِن طين لا يملك إلا قوت يومه ، وهؤلاء الملوك كانت جيوشهم تسد الأفق عندهم خدم وحشم وحجّاب ، لكن ذلك كله أدراج الرياح :

كُتِب الموت على الخلق فكم فلّ مِن جيش وأفنى مِن دولْ

فيا مِن عنده قوت يومه ومصحفه مع رياض الصالحين وبلوغ المرام عرفت فالزم واعمل بما عملت فإنك في مجد خالد وعيش هنيء .



لذة العِلم

تحدث صاحب (أبجد العلوم) عن لذة العلم فقال : " اعلم أن شرف الشيء إما لذاته أو لغيره ، والعلم حائز الشرفين جميعًا لأنه لذيذ في نفسه فيُطلب لذاته ، لذيذ لغيره فيُطلب لأجله .

أما الأول : فلا يخفى على أهله أنه لا لذة فوقها لأنها لذة روحانية وهي اللذة المحضة وأما اللذة الجسمانية فهي دفع الألم في الحقيقة كما أن لذة الأكل دفع ألم الجوع ، ولذة الجماع دفع ألم الامتلاء ، بخلاف اللذة الروحانية فإنها ألذ وأشهى مِن اللذائذ الجسمانية . ولهذا كان الإمام الثاني محمد بن الحسن الشيباني يقول عندما انحلت له مشكلات العلوم : " أين أبناء الملوك مِن هذه اللذة " ؟! سيما إذا كانت الفكرة في حقائق الملكوت وأسرار اللاهوت ، ومِن لذاته التابعة لعزته أنه لا يقبل العزل والنصب مع دوامه لا مزاحمة فيه لأحد ، لأن المعلومات متسعة مزيدة بكثرة الشركاء . ومع هذا لا ترى أحدًا مِن الولاة الجهال إلا يتمنون أن يكون عِزهم كعِز أهل العلم إلا أن الموانع البهيمية تمنع عن نيله .

وأما اللذائذ الحاصلة لغيره : أما في الأخرى فلكونه وسيلة إلى أعظم اللذائذ الأخروية والسعادة الأبدية ، ولن يتوصل إليها إلا العلم والعمل ، ولا يتوصل إلى العمل أيضًا إلا بالعلم بكيفية العمل ، فأصل سعادة الدارين هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال .



وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ، ولزوم الاحترام في الطباع فإنك ترى أغبياء التُرك وأجلاف العرب وأراذل العجم يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد مِن التجربة ، بل البهيمة تجدها توقر الإنسان بطبعها لشعورها بتمييز الإنسان بكل مجاوز لدرجتها ، حتى إنها تنزجر بزجره وإن كانت قوتها أضعاف قوة الإنسان " .

وكان أبو حنيفة – رحمه الله – إذا أخذته هزة المسائل يقول : أين لملوك مِن لذة ما نحن فيه ؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه .

وقال بع الحكماء : اقصد مِن أصناف العِلم إلى ما هو أشهى لنفسك وأخف على قلبك فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك له وسهولته عليك .

فهذه المكانة التي وضعها الله سبحانه وتعالى للعلم وأهل العلم ، وما أكدته السنة النبوية ؛ كافية أن تغرس في النفس حُب العلم ولذته والانشغال به ، والمتأمل الفطن سيدرك بأنه بالعلم وحده سوف يصل إلى أرقى الدرجات في الدنيا والآخرة معًا .



لماذا نطلب العِلم ؟

يقول الإمام الماوردي – رحمه الله – (في أدب الدنيا والدين) : " اعلم أن لكل مطلوب باعثًا ، والباعث على المطلوب شيئان : رغبة أو رهبة . فليكن طالب العلم راغبًا راهبًا . أما الرغبة في ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته ، وحافظي مفترضاته . وأما الرهبة فمِن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ، ومهملي زواجره فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدّتا إلى كُنه العلم وحقيقة الزهد . وقد قال الحكماء : أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة . فإذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وإن افترقا فيا ويح مفترقين ، ما أضرّ افتراقهما ، وأقبح انفرادهما . "

وما أجمل أن يكون الباعث على طلب العلم هو العلم ذاته ، لا ما يُتحصل منه ، فإذا تمكن حُب العلم مِن النفس وتربت الأرواح على الشغف به نالت مرادها دن أن تشعر .

ويقول بعض البلغاء : تعلّم العلم فإنه يقوّمك ويسددك صغيرًا ويقدّمك ويسوّدك كبيرًا ويُصلِح زيفك وفسادك ويرغم عدوّك وحاسدك ويقوّم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك فالعلم والعقل سعادة وإقبال ؛ وإن قل معهما المال وضاقت معهما الحال ، والجهل والحمق حرمان وإدباره وإن كثر معهما المال واتسعت معهما الحال لأن السعادة ليست بكثرة المال فكم مِن مكثر شقي ومقلّ سعيد ، وكيف يكون الجاهل الغني سعيدًا والجهل يضيعه أم كيف العالم الفقير شقيًّا والعلم يرفعه ؟ وقد قيل في منثور الحكم : كم مِن ذليل أعزه علمه ومِن عزيز أذله جهله . وقال عبد الله بن المعتز : نِعمة الجاهل كروضة على مزبلة . وقال بعض الحكماء : كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحًا .



آداب طالب العِلم

لطالب العلم آداب كثيرة منها :

1- أن يطهّر قلبه مِن الأدناس ، ويخلص نيته لله تعالى ليصلح باطنه لقبول العلم وحفظه واستثماره . قال رسول الله ε : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " .

2- أن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد في التحصيل ويرضى باليسير مِن القوت ويصبر على ضيق العيش وينبغي أن يتواضع للعلم والمعلم فبتواضعه ينال العلم ، قال الشافعي : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح .

3- أن يكون حريصًا على التعلم مواظبًا عليه وينبغي أن تكون همته عالية فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير وأن لا يسوّف في اشتغاله ولا يؤخر تحصيل فائدة لكن لا يحمل نفسه ما لا تطيق مخافة الملل ، وهذا يختلف باختلاف الناس .

تدرّج في طلب العِلم

لكل فن مِن الفنون مسالكه وطرقه ، ولابد أن يكون له منهج واضح يفضي إلى الوصول إلى غايته بما يحقق للسالك والراغب الفائدة المرجوة ، وفي هذا يقول الماردي : " اعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها ومداخل تفضي إلى حقائقها ، فليبتدئ طاب العِلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها وبمداخلها ليفضي

إلى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يُدرك الآخِر ولا يعرف الحقيقة لأن البناء على غير أس لا يُبنى والثمر مِن غير غرس لا يُجنى " .



وعليه فإن المتبصّر والباحث عن صحيح الطرق لبدء باليسير في طريق العلم سيجد نفسه قد حظي بما يتوخاه مِن نتيجة مُرْضية حيث إن تبين الطريق ومعرفة غايته عن حقيقة وعلم فيه من الخير الكثير للسائر في طريق البحث وطلب المعرفة .

ابدأ بالأهم

ويقول الماردوي – أيضا - : " وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل ، وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلّون .... " .

قال الشافعي – رحمه الله - : "من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن تعلم الفقه نَبُل مقداره ، ومَن كتب الحديث قويت حجته ، ومَن تعلم الحساب جزُل رأيه ، ومَن تعلم اللغة رقّ طبعه ، ومَن لم يصُن نفسه لم ينتفع بعلمه " .

تعلّم ولو في الكِبر

حُكي أن بعض الحكماء رأى شيخًا كبيرًا يحب النظر في العلم ويستحي ، فقال له : يا هذا أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله ؟ .

وذُكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه ، فقال : يا عمّ ، ما عندك فيما يقول هؤلاء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر ، فقال : لِم لا تتعلمه اليوم ؟ قال : أوَ يَحسُن بمثلي طلب العلم ؟ قال : نعم ، والله لأن تموت طالبًا للعلم خير مِن أن تعيش قانعًا بالجهل . قال : وإلى متى يحسن بي طلب العلم ؟ قال : ما حَسُنت بك الحياة لأن الصغير أعذر وإن لم يكن في الجهل عُذر ، لأنه لم تطُل به مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الإهمال .



قال الماردوي – رحمه الله - : " وربما امتنع الإنسان مِن طلب العلم لكبر سنه ، واستحيائه مِن تقصيره في صغره أن يتعلم في كبره فرضيَ بالجهل أن يكون موسومًا به وآثره على العلم أن يصير مبتدئًا به . وهذا مِن خُدَع الجهل وغرور الكسل ؛ لأن العلم إذا كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن يكون شيخًا متعلمًا أولى مِن أن يكون شيخًا جاهلاً " .

وقد قيل في زماننا هذا : (اطلب العِلم ولو في الصين) وقيل أيضًا : (اطلب العلم مِن المهد إلى اللحد) فطلب العلم لا يعرف عمرًا ولا سنًا ولا زمنًا ولا مكانًا ، فطالما أن في الجسد روحًا تحيا فهي أحق باستغلالها في طلب العلم والبحث عنه .

اقرأ .. اقرأ

أول كلمة في الوحي : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } وخير جليس في الأنام كتاب وأعظم لذة تصفح عقول الرجال ومن خدمته المحابر حملته المنابر ومن صاحب الصفحة حاز الشرف وما نظر رجل في كتاب إلا خرج بفائدة ، الغنيمة الرابحة قطف الحكمة من الصحف . انسخ حروف العلم من ألواح قلبك واكتب سطور الإفادة على صحيفة روحك واكتحل بكلمات المعرفة لترى ملكوت السموات والأرض إنك يوم تخلو بالكتاب تُطوى لك الأزمان وتُطّل عليك الدهور وتناجيك العِبر وتشجيك العظات وتصقلك التجارب وتدهشك العجائب احلب دُرر العلم من ثدي



الأسفار فإن في الدفاتر مملكة الأفكار . وصاحب الكتب مع كتبه أغنى من قارون الكنوز وأعز من نعمان الكتائب وأحسن حالاً من البرامكة ومصاحب القرطاس أطيب عيشاً من نديم الكأس ومدارس الآثار أعظم من المنصت لنغمة الأوتار إن مصاحبة الكتاب تصونك من تيه الملوك وتحميك من صلف الجبابرة وتحوطك من سطوة الظلمة وتحفظك من لوم الحاسد وتشفي الشامت ورؤية الثقيل ومنّة البخيل وكدر الغبي ومؤونة المغتاب وطيش السفيه ولذلك أدعوك إلى الإكثار من فلي الكتب ودوام تفتيش الصحف والمصابرة في مسامر المصنفات فما قيمة الزمن بلا مطالعة ؟ وما فائدة العمر بلا قراءة ؟ وكيف يحلو العيش بلا كتاب ؟ ذهبت الدول ونسي الملوك وتعطلت الأسواق ودرست المنازل وتهدمت القصور وبادت الحدائق وفنيت الأموال وهَلك الرجال ولكن خلدت الحكمة في الكتب وبقيت المعرفة في الصحف وقرّ العلم في المؤلفات ودامت تركة المعرفة . وتذكر أن الأنبياء لم يُورِّثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر .

منزلة القراءة في الإسلام

ولأهمية القراءة في الإسلام كانت أول كلمة في أول سورة نزلت على الرسول εهي أمره بالقراءة بادئاً باسم الله كما قال الله تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } ثم كرر الأمر بها فقال { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ } .
وكان الأمر بهذه القراءة فاتحة لقراءة هذه الأمة عالَمَ الأرض والسموات و فيهما و بينهما من أفلاك وأقمار ومجرات وبحار وسحاب ومطر وبرق ورعد وبَرْد وحَر وجليد وحيوانات لا يحصيها إلا خالقها في البر والبحر والجو وجبال متنوعة في كبرها وصغرها وألوانها وأنهار هي شرايين الحياة في الأرض تصل بين الجبال والسهول والبحار تمد البشر والحيوانات والأرض بماء الحياة وتمكن الناس من الانتقال بواسطتها من مكان إلى مكان لا حيلة لهم – في كثير من المناطق- في ذلك التنقل بدونها يأكلون من طري أسماكها ويلبسون من جواهرها وحليها ، وأشجار وغابات يتنفس البشر مِن هوائها النقي . وأمر الله هذه الأمة بالقراءة في سورة هي مِن أول السور المكية نزولاً فقال لهم :



{ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ } وقال { فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ } وبذلك أصبحت أمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب ، تعلِّم عالَمَ الأرض مِن ذوي الحضارات العريقة علوم الدنيا والآخرة ومعارف الأرض والسماء وسياسة الأمم العادلة التي تجلب لها السعادة وتدفع عنهم الضنك والشقاء .
وقد كان الصحابة والسلف رضوان الله عليهم يسعون إلى طلب العلم بأي وسيلة كانت ومهما كلف الوصول إليها مِن جهد وعناء ، فهذا عبد الله بن مسعود ε كان إذا تلا قوله تعالى { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} قال " اللهم زدني علمًا وإيمانًا ويقينًا " .
وقد بلغ ε مِن شدة اجتهاده وطلبه أن قال : " والله الذي لا إله غيره ما أُنزلت سورة مِن كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أُنزلت آية مِن كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلُغُه الإبل لركبتُ إليه " .



وهذا أبو هريرة ε حافظ الصحابة يصفه ε بالحرص على العلم فقد عقد البخاري في (صحيحه) : (باب الحرصُ على الحديث) وذكر حديث أبي هريرة ε وسؤاله النبي ρ عن أسعد الناس بشفاعته ؟ وقوله له : (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدُ أول منك لِما رأيت مِن حرصك على الحديث ...) .
قال البدر العيني في (عمدة القاري) : ((فيه الحرص على العلم والخير فإن الحريص يبلغ بحرصه إلى البحث عن الغوامض ودقيق المعاني لأن الظواهر يستوي الناس في السؤال عنها لاعتراضها أفكارهم ، وما لَطُفَ مِن المعاني لا يسأل عنها إلا الراسخ فيكون ذلك سببًا للفائدة ، ويترتب عليها أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة)) .

وهذا جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنهما – يرحل مِن المدينة النبوية إلى مصر – مسيرة شهر على البعير – مِن أجل سماع حديثٍ واحد ، فخاف أن يموت ولم يَسمعه .
وأخرج الدارمي بسند صحيح عن عبد الله بن بريدة : ((أن رجلاً مِن أصحاب النبي ρ رحل إلى فضالة بن عُبيد وهو بمصر ، فقدمَ عليه فقال : أما إني لم آتكَ زائرًا ولكن سمعت أنا وأنت حديثًا مِن رسول الله ρ رجوتُ أن يكون عندك منه علم ...



نعمة القراءة

القدرة على القراءة نعمة مِن نعم الله كغيرها مِن الوسائل التي آتاها الله ابن آدم وإذا أردت أن تعرف هذه النعمة العظيمة فما عليك أيها القارئ إلا أن تقارن بين نفسك وبين من لا يقرأ مِن أقاربك أو أصدقائك لترى الفرق الهائل بينك وبينهم ، فأنت تنظر إلى الحروف المترابطة التي تتكون منها الكلمات ، والكلمات المتتابعة التي تتكون منها الجمل المفيدة ، والجمل المفيدة التي تتكون منها الموضوعات الكاملة التي قد تثمر كتابًا أو مجلدات وأنت تتابعها حرفًا حرفا وكلمةً كلمة ، جملةً جملة ، وسطرًا سطرا ، وموضوعًا موضوعا ، وكتابًا كتابا ، ومجلدًا مجلدا ، تغذي بمعانيها عقلك الذي لا يزال ينمو ويترقى في سلم أعالي العلوم والمعارف بشتى أنواعها ،



وهي التي تستحثه بقراءاتك المتكررة لشتى أنواع الثقافة ، إلى أن يكون (العقل) ميزانًا لما ينفعك من التصرفات ، فيشعل لك بذلك سراج الهداية لتستضيء به في مسيرة حياتك لتتشبث بكل نافع ومفيد ، وميزانًا لما يضرك من النشاطات ، فيرفع لك معلم التحذير من سلوك سبيل الباطل التي تحرضك على سلوكها نفسك الأمارة بالسوء ، والهوى المردي ، والشيطان الرجيم ، فيتعاون العقل السليم والفطرة النيرة والوحي المبين ، على قيادتك إلى ربك لتحقيق ما ترضيه به في دنياك وآخرتك .
إن القراءة تصل القارئ بالعصور الغابرة من التاريخ ، بما فيه من خير وشر ، وتعجله – إذا دوّن أفكاره – متواصلاً مع الأحقاب اللاحقة ، ينقل للأجيال القادمة أحداث عصره ، وعادات جيله ، وتاريخ أمته ، كاشفاً لهم تجارب عصره ، بما فيه من إيجابيات يدعو لاقتفائها ، وسلبيات يحذر من الوقوع فيها ، أما من لم يقدر له الله أن ينال هذه النعمة – نعمة القراءة – فلا تراه يفرق بين المكتوب والمرسوم ، واللعب والجد والحق والباطل ، مما يسطر في صفحات الكتب والجرائد والمجلات ، والألواح والصخور ، إلا بأن هذا لون ذلك لون صوّرته له الرؤية ، لا يعلم من محتواه شيئًا ، ولا يدري من مضمونه عرفًا ولا نكرًا , يرى الحروف والكلمات والجمل والسطور, رؤية قد يعجبه جمالها , دون أن يعرف ما تحمله في أحشائها من جواهر و أصداف, أو ما أثقلت به صنوانها الدانية و أغصانها من ثمار لذيذة يانعة .



لا فرق بينه وبين صبي خرج لتوه من رحم أمه , أو مجنون فقد عقله , فكلهم حُرم من التمتع بنعمة القراءة , إلا أن الصبي والمجنون معذوران بسقوط التكليف عنهما , وهو من المؤهلين للتكليف العيني والواجب الكفائي في أمور دينه ودنياه .

فوائد القراءة

أما فوائد القراءة فإنها تفيد العلم وتنفي الجهل , وتقوي الذاكرة وتنضج العقل , وتنقل لك التجارب والعبر , وتطلق لسانك , وتكشف لك الأسرار , وتختصر لك الزمان والمكان , وتعوضك عن الرحلة للطلب , وتعظك وتزجرك , وتسليك في الوحدة , وتطرد عنك الهم والسأم.
والقراءة تريحك من جليس السوء , وتجالس من خلالها الصالحين , وتحفظ العلم لك , وتمنعك من الوسواس , وتملأ بها فراغك , وترزقك المهابة



والملاحة , وترفع همتك , وتعلي من قيمتك , وتحبب الناس في مجالستك وبالقراءة تطلع على سنة الله في الحياة وتنال بها الرسوخ المعرفي واليقين الديني ، وهي تحبب لك العزلة وتزهدك في الدنيا وترغبك في الآخرة ، وبها تكون سيدًا مطاعًا ، ثريًا بالعلوم والمعارف . كما أن القراءة ترفعك عن التوافه وتغذي روحك وتفرحك وتنسيك آلام الحساد ، وتشغلك عن سخافات الناس وتغنيك عن التنقل ، وتزن بها عقول الناس وتُذهب عنك عمى البصيرة وتردك عن الضلالة والغواية ، وتجالس أكرم جليس وتمنعك عن الذنوب وتخولك لصعود المنابر وتعِدُّك لحضور المحافل وتعلمك الخطابة في الجماهير وتدربك على مذاكرة العلماء والجلوس مع الملوك والأمراء والأدباء ، ومعايشة الأمم .

والقراءة تمنعك مِن أخلاق العوام والهوام ، وتعيش بعيدًا عن الأراجيف والشائعات ، تجالس عقلاء الناس ، تتعظ بما حصل للناس مِن نكبات وتحجزك عن الفتن وتدربك على الكتابة والتأليف وتحبب إليك لقاء الله وتنشطك للعبادة وتعلمك الأخلاق الحسنة وتهدي لك فوائد أغلى مِن الذهب والفضة ، وتحل لك الأسئلة والإشكالات وتضيف إلى عمرك أعمارًا وترخص عندها بسببها المظاهر الخداعة ، وتظهر لك صحة وبطلان الدعاوى والمذاهب .

وبالقراءة يرتفع ذكر الإنسان فهي طريق للسيادة الدينية والدنيوية وبها يغزر العقل ويبتعد الإنسان عن التهويل ويكتسب دقة النظر وصحة الحكم وصواب الرأي وبالمطالعة يكتشف الكيد والخداع والدسائس وينمّي روح الإبداع والتجديد وبالقراءة يدرك حسن التعامل مع الحياة والناس ويثقف فكره ويصقل ذهنه وتهون المصائب عليه .



والكتب أجمل مِن الحدائق وأبهى مِن البساتين وتنوب لذة مطالعتها عن لذائذ الدنيا ، ويكتشف الإنسان بوساطتها نفسه وأبناء جنسه ، ففيها دواء الروح والعقل والجسم وفيها عوض عن المناصب والجاه والمال والولد ، ومَن طالع وألّف خلد ذكره وقد تعثر على حكمة أثناء قراءتك تكون خيرًا لك مِن الدنيا وما فيها .

وتجمع القراءة بين الفائدة والمتعة والتسلية ،وقد أجمع العلماء على أنها أنفع هواية ، وكل مجلّد لم يأتِ عن طريق القراءة زائل زائف ، فيها يحصل الاختراع والاكتشاف وكل عبقري في الدنيا إنما برع عن طريق القراءة والقارئ الجيد واقعي لا يذهب وراء الخيال ، والقراءة الشرعية طريق لحسن العبادة وتساعد على تزكية النفس وينقص علم العالم بقدر نقص قراءته والعالم الذكي قد يعيش بلا أولاد ولا دور ولكن لا يعيش بلا كتاب وقراءة ، ولا يقهر خصمه إلا علمه واطلاعه ، والقراءة النافعة انتصار للإسلام على يد أهله ، والذي لا يقرأ لا يساهم في صنع الحضارة ، والقراءة باختصار هي قمة العلم المثمر الجاد

بالقراءة تُطوى القرون

لا تزيد القراءة صاحبها إلا معرفة وسعة أفق ، وكلما طالع الإنسان تراث الناس وثقافتهم اتسعت دائرة معرفته ونما عقله ، خاصة إذا قرأ النافع المفيد . وإنني أتأمل أمورًا ظهرت لي وتجارب انكشفت ليس سببها – بعد توفيق الله – إلا المطالعة في الكتب ، فقد مرت بي العجائب والغرائب والتجارب والمصائب وطويت أيامي القرون طيّ السجل للكتب وكأن الأمم جُمعت أماميٍ في صعيد واحد ، فيا من صبر على العزلة وفتح باب المعرفة ومصاحبة الكتب لا تأسف على شيء فاتك فمن ذاق حلاوة العزلة مع الكتب النافعة فلن يرضى بها بديلاً ولو أعطي مُلك كسرى وقيصر .



اقرأ .. تملك زمام الأمور

القراءة مفتاح المعرفة وطريق الرقي ؛ وما مِن أمة تقرأ إلا ملكت زمام القيادة وكانت في موضع الريادة وخير شاهد على ذلك ما نعاصره مِن تفوق النصارى في الغرب ، والبوذيين في اليابان ، وتراجع المسلمين الذي نزل كتابهم العزيز المقدس مبتدئًا بالأمر " اقرأ " ، والأمر ذاته يصدق في حق الأفراد مِن الناس . إن القراءة نزهة في عقول الرجال – كما قال المأمون - ، وتجربة ماتعة لا يكاد يهجرها مَن سحرته الكتب وهام بالمؤلفات وعشقها ، فهي سميره وحديثه ورفيقه ومحور حديثه وموضع اهتمامه .
إنها ذات شأن عظيم حتى عن مَن لا يستمتعون بها ، ولذا تكثر الأسئلة حولها ويحرص المهتمون على ما ينفعهم فيها ما بين قراءة موجهة أو الالتحاق ببرامج تدريبية أو استضافة ذوي التجارب للاستفادة منهم ؛ وهذا كله مسلك مبارك يؤازر ويثنى عليه . قال أبو الوليد الباجي :

إذا كنتُ أعلمُ عِلمًا يقينًا بأنّ جميع حياتي كساعةْ
فَلِمَ لا أكون ضنينًا بها وأجعلها في صلاحٍ وطاعةْ



اقرأ لترقى في مدارج السالكين

القراءة هي إحدى الوسائل المهمة لاكتساب العلوم المختلفة والاستفادة مِن منجزات المتقدمين والمتأخرين وخبراتهم وهي أمر حيوي يصعب الاستغناء عنه لمَن يريد التعلم وحاجة ملحة لا تقل أهميتها عن أهمية الطعام والشراب ولا يتقدم الأفراد – فضلاً عن الأمم والحضارات – بدون القراءة ؛ فبالقراءة تحيا العقول وتستنير الأفئدة ويستقيم الفِكر .
والقرّاء المنهجيون هُم – في الغالب – النخبة المتميزة والصفوة المؤثرة في التكوين الفكري والبناء الثقافي والمعرفي للأمة ، ولهذا كانت العناية بالقراءة عناية بروح الأمة وقلبها الحي النابض القادر على البناء والعطاء
لذا أُختُصت أمة الإسلام مِن بين سائر الأمم بأمر مباشر مِن الله تعالى لها تمثل فيقوله سبحانه ((اقْرَأْ)) . وكان هذا الأمر أول أمر أُنزل على نبينا ρ تنبيهًا له ولأمته على أهمية القراءة في حياة البشر ولكي يعتني بها أفراد الأمة ويولونها ما تستحقه مِن اهتمام . كذلك فقد كان القسم بالقلم في قوله تعالى { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } مِن أوائل ما نزل مِن القسم في القرآن الكريم بل وسميت سورة مِن سور القرآن باسمه تنبيهًا أيضًا على أهميته في الكتابة ومِن ثم القراءة .



وحينما تخلت لأمة عن هذا الأمر ونامت في سبات الأمية ، فقدت مركز ريادتها ومكان صدارتها ، بل أصبحت محل تندّر مِن أعدائها ، فها هو أحد زعماء الكيان الصهيوني يصِف أمة الإسلام والقراءة والقرآن بأنها أمة لا تقرأ وحتى إذا قرأت لا تفهم ! .. ، لِذا فحري بأفراد الأمة العودة إلى تطبيق الأمر الإلهي : (اقرأ) والالتزام به وجعله محور مِن المحاور التي لا تتخلى عنه ولا ترضى به بديلاً .

صناعة القراء .. وصياغة العقول

إن الناظر في سِيَر العلماء يَخلُص إلى حقائق مهمة ونتائج واضحة منها : معرفتهم بقيمة هذه الثروة الهائلة والكنوز العظيمة ، لذا فقد أولوها عناية فائقة وجهودًا ضخمة ظهرت في صور عديدة – سنستعرض شيئًا منها في هذا الكتاب - .
إن مِن واجبات أهل العلم اليوم : تبصير النشء بأهمية هذا التراث الذي خلّفه الأجداد ، فهو عصارة عقولهم لقرون عديدة وثمرة جمعهم وسهرهم لآماد



مديدة ، وإن مِن واجباتهم – أيضًا – النهوض بهذا التراث والحفاظ على هذه الترِكة التي لا يَقدُرها قدرها إلا هم ، ولا يستطيع الحفاظ عليها حقًا إلا هُم .

إن الحفاظ على هذه الثروة لا يكون بمجرد رصفها في خزائن أنيقة ولا بترتيبها وتزويقها وتنميقها ولا بنشرها وتحقيقها ، كلا ! ليس بذلك فقط ، لكن خير وسيلة لحفظها وأنجع طريقة للحفاظ عليها هي : بعث الحركة العلمية وإنمائها وإيقاظ الهمم وإعلانها بحيث نضيف كل يوم إلى صفوف القراء (والقراء حقًّا) عددًا جديدًا يعكفون عليها ويستجلون فوائدها ، فبهذه الطريقة تنمو وتكتمل كل الوسائل المساعدة (مِن خزن ورصف ونشر ....) وسيسعى طلاب العلم ورواد المعرفة حثيثًا تجاه إنما كل ذلك بدافعٍ ذاتي واقتناع شخصي ؛ لأنهم أصبحوا حينئذٍ في أمسّ الحاجة إليها ، ومِن أعرف الناس بقيمتها .

ويوم كان العلماء يتنافسون في اقتناء الكتب ويتبارون في تحصيلها واستنساخها ويعكفون على قراءتها وإقرائها (مما ستراه في هذا الكتاب) يوم كانوا كذلك ، نَشِطَت حركةُ التأليف والنسخ ، بل وجميع ضروب خدمة الكتاب . فإذا أوجدنا القراء وُجِد معهم كل شيء وإلا فقل لي – بربك - : ما قيمة تلك الوسائل ولا مستفيد ولا راغب ولا طالب ؟!



مع القراءة والكُتب

مِن الكتب ما تأخذ منها أكثر مما تأخذ منك ، ككتب الحديث الشريف واللغة والأدب والرقائق والتاريخ ، ومنها ما تأخذ منك أكثر مما تأخذ منها ككتب الفقه المذهبية وخاصة إذا كُدّرت بالحواشي المملوءة بكلام الناس مِن قيل وقال ، فإنها مُذهِبةٌ للعقل في غير جدوى ، وكذلك كتب أصول الفقه النظرية أو المنطقية كـ (المعتمد) و (المستصفى) ، وما أنفع (الموافقات) و (أعلام الموقعين) .

واحذر التكرار في طريقة القراءة في فن واحد فإنه يذهب الوقت ؛ كمن يقرأ مختصر صحيح البخاري ثم الصحيح نفسه ثم تيسير الوصول ثم جامع الأصول ثم الجمع بين الصحيحين ، فإنه بهذه الطريقة يعيد الحديث على الأقل عشر مرات ، ولو صرف للجهد في غيرها لان أولى .



والنقل مِن الكتب في موضوع واحد يفيد في جمع المادة والتسهيل على القارئ ولكن لا جديد فيه ، وأنفع منه استعراض النصوص وإخراج بنات الأفكار وومضات الأنوار ، وتدبيج فقه النص .

وإذا كان الحِفظ يجع شتات المادة ويعزز الذهن بالفوائد فإن فِهم النصوص وتقعيدها على قواعدها الكلية ووضعها على مقاصدها خير مِن ترديد محفوظ لا يُفهَم ، ففهم العلم خير مِن حفظه ، والحفظ وسيلة ليس إلا .

القراءة .. بوابة العلم !

يعتمد التعليم على الكتب ؛ والوصول إليه يكون عن طريق القراءة ، لذا فإن الظفر بالعلم يقتضي إتقان القراءة بشكلها الصحيح ، فإجادة القراءة فن لا يجيده أي إنسان . ولذلك فإن الباحث عن استفادة مما يقرأ عليه أن يبحث عن فنون القراءة ويتتبع مدارسها وطرائقها ، حتى يستطيع الخروج بحصيلة تؤهله للاستفادة التامة مما يقرأ .

مرحلة الاستعداد

وحتى تكون قارئًا حصيفًا تستفيد مما تقرأ فعليك أن تستعد لهذا الأمر قبل أن تبدأ بالقراءة ، فتهيئة النفس لتعريفها بمدى استفادتها مما تقرأ والهدف منه سيجعلها تُقبِل على القراءة بكل طاقتها والإيحاء هنا يلعب دورًا كبيرًا لشحذ



الطاقة والهمم ولذا فقد جعل علماء اللغة والمختصون أهدافًا ستة للقراءة ملخصها ما يلي :

1- لفهم رسالة محددة .
2- لإيجاد تفاصيل مهمة .
3- للرد على سؤال محدد .
4- لتقييم ما تقرأ .
5- تطبيق ما تقرأ .
6- للتسلية والمتعة .

وعليه فإن وضوح الهدف وتهيئة العقل له قبل البدء بالقراءة أمر جوهري ، مِن شأنه تحفيز العقل على عملية الاستيعاب والفهم ، ومع ذلك التحفيز يجب توخي اختيار المكان المناسب للقراءة ، فاختيار المكان المتناسب البعيد عن الشواغل والملهيات والضوضاء والصخب مِن شأنه أن يختصر عليك الشيء الكثير والوقت الطويل في عملية الفهم والحفظ ويساعدك على التركيز للخروج بحصيلة كافية مما قرأت .



القراءة فن

للقراءة منهج وفن وقواعد ، فلا تجعل استعجال الفائدة والبحث عن خاتمة الكتاب لتعرف مبتغاه هو كل همك ومرادك ، فإن التدريب على القراءة في بداية الأمر المقصود منه هو التربي على ممارسة القراءة والتلذذ بها وعدم التضجر منها ، ولذا فإن أولى مراتب الدخول إلى ترويض النفس للقراءة هو أن تقرأ وتقرأ أطول وقت ممكن .

ثم يأتي بعد ذلك التدرج في اختيار ما تقرأ واستنباط ما يُستفاد منه ، وهي مرحلة الكيف قبل الكم ، فيجب الاعتناء بعناوين الكتب المختارة ، خصوصًا ما يصب منها في تنمية مهاراتك وقدراتك مع استحضار ذهنك وعقلك في التفكير بتطوير ما تقرأ ومحاولة الإسهام الفكري والمشاركة بتدوين آرائك وأفكارك حول ما تقع عليه عينك حتى تجد نفسك ساعيًا للبحث في كتب أخرى مِن حيث لا تشعر ، للتأكد مِن سلامة فكرتك وما يؤيدها أو يناقضها ، فتبدأ اللذة تتولد لديك بالبحث والاستقصاء مِن خلال كثرة ممارسة التفكير بعمق فيما تقرأ ، بعكس أن تكون مجرد متلقٍ لما يقع عليه نظرك .

وإياك واستعجل الفهم ، والتذمر السريع والشكوى والملل مِن عدم وصول فكرة الكتاب إليك ، فإن ذلك أمر طبيعي ولن يتسنى لك معرفة المقصود في بعض الأحيان إلا بكثرة التبحر في هذا الكتاب أو ذاك .

وأخيرًا ..

فإن النفوس التي تحمل الهمم ، والأرواح التي تبحث عن السمو هي التي تصمد دائمًا في طرق البحث عن الكمال وهي التي تنحت الصخر حتى تبلغ العلا ، وقد حاولنا أن نحببك إلى ذلك المعشوق (العلم) الذي يرفع أممًا ويخفض أممًا ، أبحرنا معك في شواطئه ، فحاولنا أن نقتطف لك آثارًا ترغبك به ، وارتأينا أن نضيء لك شموعًا تهديك إلى طريق الحق ، علّها تعينك على الوصول إلى ما تصبو إليه .







الفصل الثاني

عشقت الكتاب

بعد تجربة طويلة مع الكتاب ، ورحلة عسيرة مع الأوراق ، عـدت بقـناعة أنه لا أوفى ولا أصفى ولا أحفى مِن الكتاب . الصديق الذي لا يَمـلّ ، أو يعتب ، أو يهجـر ، أو يجفو أو يصد ، أو يخون ، أما الكتاب فلا ملل ولا عتب ولا هجر ، ولا جـفاء ، ولا صـدود ولا خيانـة :

أنا ممن باع بالكتب الصحابا * لم أجِد وافيًا إلا الكتابا !**

فلما تيقنت ذلك صحبت الكتاب ، فهو على ذراعي إذا نمت ، وعلى صدري إذا اضطـجعت وفي حضني إذا جلست ، وتحت إبطي إذا مشيت ..



في هذا الفـصل أستعـرض قصـتي مع الكتاب واقفًا عـند بعض المحطـات فـي حياتي مِـما استوقفني فيها الكـتاب زمنًا طويلاً وكان له أثرٌ في نفسي مع ذِكر شـيء مِن فوائده ، والحـث على العناية لعلني بهذا أنقل بعضًا مِن تجـاربي للاستفادة .

عشقت الكتاب

قلت :

صاحبي مصحفي وخَلِيَّ كتابي … ونديمي اليراع والكون داري
وجنودي دفاتري وكنوزي … ذِكر ربي وسلوتي أشعاري
عزلتي عزتي وعقلي سميري … ويدي خادمي وديني شِعاري
ولساني سيفي ورمحي قريضي … ويميني كتاباتي ويساري
لي قميصان لا أريد سواها … وطعام يقيمني في نهاري
قد مللت الحياة والناس والدهر … فيا ليتني رفيق البراري
لم أجِد مخلصًا ولا صاحبًا شهمًا … ولا وافيًا يقيم عثاري
أهل زيغ وخدعة ورياء … ونفاق ومظهر غدّارِ
حسدٌ قاتلٌ وحِقدٌ دفين … كل ذئب مهتك في جوارِ
فاتخذت الفرار نهجًا سليمًا … فحُسدنا حتى لهذا الفرارِ !
ليس لي واليًا سوى الله ربي … جلّ ربي مِن حاكمٍ قهّارِ

بعدما فارقت سن الطفولة وزمن اللهو اتخذت الكتاب جليسًا وسميرًا وأنيسًا , أصبح الكتاب صاحبي أُمسي والكتاب رفيقي , أنام وهو على صدري وأحتضنه وأنا أمشي . سلوت به عن الأهل والإخوان وتشاغلت به عن كل صديق, تركت النزهة في البساتين من أجله , بل لقد مر بي زمن لم أخرج من بيتي من أجل المطالعة , ولقد أتى عليّ زمن وأنا أطالع الكتاب في وقت الأكل , آكل وأنا أقرأ , أشاهد اجتماع الناس وفرحهم وطربهم أنا مشغول بكتابي هائم بأوراقي , ولقد كنت أقرأ في اليوم ما يقارب مائتي صفحة وربما قرأت في اليوم مجلدًا كاملاً , وربما كررت الصفحة عشر مرات , وأعيد المقطع من النثر حتى أحفظه , وأكرر القصيدة حتى أحفظها , وكنت أقرأ في

التفسير حتى أملَ , ثم أطالع الفقه حتى أسأم , ثم آخذ في الأدب حتى أضجر , ثم أحفظ الحديث وأتلو القرآن وأنظر في التراجم , وأنشد القصائد , وأحيانا أؤلف وأختصر وأحذف وأزيد , ولقد قرأت بعض الكتب عشر مرات , وجرَدت أمهات الكتب جردًا وكنت أغلق عليّ الباب ومعي الكتاب فلا أرتاح لسماع صوت ولا لرؤية إنسان ، لأنني في أعظم متعة وفي أجلّ لذة ، وكنت أجعل الأيام للفنون ، فمثلاً يوم السبت للعقيدة ، والأحد للفقه ، والاثنين للتفسير والثلاثاء للحديث ، والأربعاء للنحو ، والخميس للأدب ، والجمعة للسيرة ، وكنت أسهر أحيانًا إلى الفجر وأنا أطالع وأعيد وأكرر ، ولقد مرت بي أعياد والكتاب في يدي ، وربما قرأت وأنا في السيارة إذا ساق زميلي ‘ فإذا قدت السيارة طلبت منه أن يقرأ ، وكنت أصور المجلد الضخم في أجزاء وأكرر كل جزء وأشتري مِن الكتاب الواحد عدة نسخ ، وأضع نسخة في المجلس ، ونسخة في غرفة النوم وثالثة معي في السيارة ، وكنت أطلب مِن بعض ضيوفي القراءة معي حتى يحضر الطعام ، ومِن كثرة تكراري للكتب كنت أعرف موضع الترجمة والقصيدة هل هي يمين الصفحة أو يسارها ، وكنت أسهر والكتاب بيدي فيسقط إذا نعست ، فأقوم فأقرأ فيسقط مرات كثيرة ثم أنام وهو بجانبي وأحيانًا أسمع حديث الناس وهُم بجانبي وأنا اقرأ فلا أدري ما يقولون وكنت أتعجب ممن لا يقرأ وأرى أن حياته لا جديد فيها ، وكنت لا أعجب بالرياضة أو المصارعة أو أي هواية أو سفر ، إنما عجبي وتعلقي بالكتاب ، وكانت الكتب أحب أصدقائي ، بيني وبينها صداقة حميمة ، فيها الجاد ككتب العلم ، وفيها المرح ككتب الأدب ، وأنا مع الكتب لا أصبر على طعام وأحب أن أنوّع وأغاير بينها ، وكنت شغوفًا بشراء الكتب واقتنائها ، أّذهِب مالي فيها وربما اقترضت ولا أنزل إلا إلى المكتبات ، وكنت أعجب مِن همم السلف يالتأليف وأنبهر مِن كثرة كتب ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي والزهري والطبري وابن حجر وابن كثير وأمثالهم ، وإذا حصلت على كتاب جديد مفيد فرحت به فرحًا شديدًا ، وكنت أُغلِق على كثير مِن الكتب وربما سهرت في مكتبتي ثم أنام بين كتبي ، ومرة ذهبت إلى قريتي الريفية الجميلة في عطلة صيفية ، فما خرجت مِن بيتي إلا للمسجد ، أقرأ مِن بعد الفجر إلى السابعة صباحًا ثم أنام إلى التاسعة وأقرأ حتى صلاة الظهر وبعد الظهر حتى القيلولة وبعد العصر والمغرب والعِشاء حتى أنام ، وكان يقدم لي الطعام وأنا اقرأ ، وأجلس مع والديّ وأنا اقرأ ، وقد نصحني بعض الزملاء أن أخفف على نفسي مِن القراءة خوفًا على بصري فما استطعت أن أصبر عن القراءة بل أحس بجوع شديد لها . ومما زادني حبًا في القراءة مطالعة أخبار العلماء في التحصيل وطلب العلم خاصةً كتب : (صفحات مِن صبر العلماء) لأبي غدة ، و(صيد الخاطر) لابن الجوزي ، و(الفقيه والمتفقه) للبغدادي ، و(نيل الأرب) لشوكاني ، وكنت أكرر الصفحة الواحدة مِن (فتح الباري) ثلاث مرات وإذا قرأت كتابًا وأعجبني وددت أن يطول وتكثر أوراقه ، وقد خصصت أيامًا كثيرة لكتب الجاحظ فقط ، وأيامًا لابن تيمية فقط ، وأيامًا لكتب ابن حزم فقط فأثمر ذلك عندي مِن الرغبة الجامحة والمحبة العارمة ما يفوق الوصف ، وإذا لم يكن معي كتاب ؛ أحسست بالوحشة والسأم والملل وكان بعض الأصدقاء والأقارب يأخذنا في نزهة فآخذ معي الكتاب وإذا لم أجد وقتًا لقراءة عدت إلى منزلي لأقرأ .



وأنا أطالع كل شيء ، أقرأ الكتاب الطويل والقصير ، والجاد والهازل ، أقرأ المصنف والمجلة والصحيفة ، أقرأ للمتقدمين والمتأخرين في العلم والأدب والثقافة في كل باب وفي كل فن سواءً فهمت أو لم أفهم ، وحاولت أن أحدد لنفسي بعض الفنون وأقتصر عليها فأبت ، وكلما وهنت عزيمتي قرأت سيرة أهل الهمم والعزائم حتى ينقدح في ذهني إلهام ، وفي قلبي حُب لطلب العلم فما أزال أقرأ وأحفظ وألخص ، ولو كتبت قائمة بأسماء الكتب التي طالعتها وذكرياتي مع هذه الكتب لجاءت في كتاب ! وكنت أتعجب مِن الفارغين الذين يجلسون في الأسواق أو يشاهدون المباريات أو يسمرون على اللهو ، كيف فاتتهم لذة القراءة ومتعة المطالعة ؟!



وقد سافرت بلدانًا كثيرة في آسيا وأوربا وأمريكا وأفريقيا فكان الكتاب معي

عاشق

عند رأسي وعلى صدري وبين يدي ، وعجبت لأهل الغرب كيف يحبون القراءة بقدر بغض العرب لها ! وهذا سبب تفوقهم ونهوضهم وإبداعهم ، ويا حسرة قومي - بني العرب – كيف لا يحبون القراءة ؟! حتى قال عنا موشي دايان الهالك : ((العرب قوم لا يقرؤون)) .

ولقد قرأت أخبار مَنْ عشق الكتب ، وأغرم بها وأحبها وأجلها وأعظمها وأكرمها القرآن الكريم كتاب الله العظيم ، فقد ضرب الأخيار أروع القصص في تلاوته وحفظه وتدبره وتفسيره والاشتغال به ، وصحيح البخاري كرره بعضهم في الأندلس سبعمائة مرة ، وصحيح مسلم كرره النيسابوري مائة مرة ، والمزني كرر الرسالة للشافعي خمسمائة مرة ، وأخبارهم في اقتناء الكتب والتعلق بها تفوق الحصر – وسيأتي ذكرها - .

لقد عشت مع الكتاب أكثر مِن ثلاثين سنة وكأنها ثلاثون دقيقة مِن حسنها وبهجتها ولذتها ، فمرة كتابي القرآن الكريم أتدبره وأحفظه ، وأقف عند عجائبه ، ومرة مع التفسير أقلب صفحاته مِن مأثور ومعقول وأتعجب مِن اختلاف المفسرين وتصارعهم وترجيحاتهم وطرائف استنباطهم وغرائب فهمهم ، وحينًا أطالع سنة الرسول ρ رواية ودراية ، سندًا ومتنًا ، ألفاظًا وشروحًا ، وأتلذذ بفرائد المحدثين وقلائد الرواة المتقنين ، وحينًا أطالع اللغة العربية في رحابتها وإشراقها وأسرارها وشواهدها ، وحينًا أعيش مع النحو فأقف عند قواعده وأمثلته وما قاله النحاة فأجد نشوة لهذا العلم المخدوم والفن المهم ، وحينًا أسبح في بحر الأدب شعرًا ونثرًا ، قِصة ورواية ، فصيحًا وعاميًا ، فأجد فيه بغيتي مِن وهج مشاعر ونتاج عقول وغيث أذهان وأحيانًا أقرأ التاريخ والسير فإذا العِبر والعجائب والغرائب التي تدهش العقول وتهز الأنفس وغيرها مِن الفنون فكم مِن كتاب عانقته ، وكم مِن مصنف احتضنته ، لا أملّ مِن كتاب إلا تناولت آخر أكرر مرة ، أعيد أخرى ، أنشد حينًا ، أتحرك أحيانًا ، أبكي وأضحك ، أرضى وأغضب ، أكسل وأنشط كأن هذه الأوراق تناجيني وتحدثني وتسامرني ، أنام وحولي علماء وحكماء وأدباء وشعراء ، كتب مطروحة في غرفتي لا أتركها حتى يداهمني النوم ، فأقوم فأقرأ وأنام وأنا أقرأ ؛ لأنني وجدت القراءة البوابة العظمى لمجد الدنيا والآخرة ، ووجدت القراءة الطريق الأرحب للتفوق والامتياز ، وهي الدواء الناجع لمن شكا مِن غربة أو قلق أو سأم وليست كل قراءة نافعة ، بل لابد مِن اختيار الكتاب المفيد ، والعمل بالعلم ، وغرس الفضيلة في النفس .





لقد أحسن إلينا مَن ألف لنا كتابًا
شبكة مشكاة

فوائد الكتاب

هو النديم الكريم والخدن الأمين والبريء مِن الذنوب ، السليم مِن العيوب ، الذي إن أدنيته لم يباعدك وإن أقصيته لم يعاودك ، وإن واصلته حمدته وإن هاجرته أمنته ، وإن استنطقته أسمعك وإن استكفيته أقنعك وإن استكففته كفّ وإن استثقلته خفّ وإن دعوته لبّاك وإن استعفيته أعفاك .
لا يعصي لك أمرًا ولا يحمّلك إصرًا ، عرضك معه وافر ، وهو لسرّك غير ناشر ، أنيق المنظر ، طيب المخبر ، جميل المشهد ، كثير المحامد ، يملأ العيون قرّة والنفوس مسرّة ، يضحك الحزين اللهف ويلهي لغضبان الأسف ، يجتلب السرور ، يشرح الصدور ، يطرد الهموم والأحزان ، وينفي بواعث الأشجان ، مجاورته أحسن مجاورة ، ومسامرته أحلى مسامرة ، ومجالسته أنفع مجالسة ، ومؤانسته أمتع مؤانسة .
فيه مدعاة إلى الطرب ومسلاة مِن الوصب ، وتعلّة لذي الغرام ، وتلهيةٌ لقلب المستهام ، وأنس للمستوحش ورِيٌّ للمتعطش ، وعمارة للمجالس وحلية للمؤانس ، تلقي القلوب محبتها عليه وتميل النفوس بكليتها إليه ، ليس بينه وبين حبات القلوب حجاب ولا يُغلق بينه وبين سويدائها باب .

انتقل في بستان مكتبتك إلى حديث إلى فقه إلى أدب وهكذا

علمتني الحياة

أنا العاشق المقتول والحُب مذهبي   شراعي طموحي والعزيمة مركبي
شققت الدجى بالحرف أسهر قارئًا   أناجي قراطيسي وقصري ومكتبي
تسامرني الأوراق لا السـرُّ ذائعُ   لـديها ولا سردُ الحديث بمتعبي

ينبغي لِمَن عرف ربه حق المعرفة أن يتزود مِن ثلاث : مِن عمل صالح ، ومِن علم نافع ، ومِن أخلاق حسنة مع الناس ، وعليه أن يكفَّ عن الناس شره ليسلم مِن شرهم ، وليلزم بيته مطالعًا الكتب ، فإن فيها سلوةً مِن كل صاحب وعزاءً مِن كل غائب ، وليكثر مِن ذكر الله عز وجل ، وتذكر الموت فإنه بهذه الحالة يسلم مِن الغيبة والنميمة وأذية الناس ، فهنيئًا لمن هذا حاله ، ما أرغد عيشه وأسعد وقته ! .

علمتني الحياة أن الكتاب النافع أوفى صديق وأجلّ صاحب ، فالكتاب مَنَحني علمًا جمًا وأدبًا غزيرًا وتجارب خالدة وقد أذهب الكتاب عني الملل وأزال عني السأم ، فكلما خلوت بالكتاب عادت لي روحي وهدأ بالي وصغرت الدنيا في عيني ، إني أرحم مَن ليس عنده كتاب ، أو لا يحب القراءة ، مسكين هذا التعيس البائس : كيف يعيش ؟ وكيف يسعد وكيف يفرح ؟ .. كلّ متعة لها تبعة إلاّ متعة القراءة النافعة المثمرة المفيدة ، فهي السلوة والمتعة والراحة والسرور .

يا رموز المطالب الدنيوية   يا ليوثًا على الأماني الدنيّةْ
اتركوني ووحدتي وكتابي   ليس بيني وبينكم مِن قضيّةْ
سامحوني مِن اللقاء فإني   غارقٌ في معارف علويّةْ
كل ما تبصرون مِن بهجة   الدنيا ، خداع وكذبة عبريّةْ

تملّ من كل لذة إلا القراءة



أنا والكتاب

قلت بعدما عركتني الحياة وصارعت الأحداث وجربت الناس وشرقت وغربت :

أنا قد جئت للحياة أبيًّا   ثائر القلب عارم الأشواقِ
ما معي غير دفتري وكتابي   أعبُر الدهر ؛ مركبي أوراقي
ما جمعت الأموال أخدمها عمري   وما عشت عيشة الإملاقِ
درهمي خادمي وصاحبي الحرف   وحسبي عناية الخلاّقِ
ما عمرت القصور ، قصري سموّي   في المعالي بِهمّة السبّاقِ
ورعاني أبي وأمي حبَتني   بحنين مِن حُبها الدفّاقِ
كلما شاهدتْ عيوني جمالاً   دنيويًّا ذكرت يوم التلاقي
فتهلُّ الدموعُ فيضًا سخيًّا   مِن أفانين نبعها المهراقِ
يا كتابي أنتَ الوفيُّ لقلبي   أنت خِلّي هوّنت كلّ فِراقِ
يا خليلي إذا جفاني الأخلاءُ   عزيزي وأنت خير الرفاقِ
يا نجيّي إذا خلوتُ ببيتي   يا عزائي مِن كل أهل النفاقِ
يا سروري إذا حزنت وأنسي   أنت أغلى مِن صافناتٍ عتاقِ
اقرأ (اقرأ) رسالة الله جاءت   للنبي الكريم في الآفاقِ
كلمة تأسر القلوبَ جلالاً   وهي سرّ الخلود والميثاقِ

لي أصحاب ثلاثة معي في السفر والحضر : كتابي وأوراقي وقلمي ، فأنا صاحب قراءة وتأليف وتفكير ، وهذا سِر سلواي عن الناس وانفرادي عن العالم ؛ لأن معي العلماء والأدباء والحكماء والشعراء فأنا أعيش أزمانًا طويلة وأعاصر دولاً كثيرة وأقابل ملوكًا وأجوادًا وشجعانًا ، فما أجمل الكتاب رفيق عمر ، وصديق حياة ، وصاحب وفاء ، ومحدّث أُنس ومفرّج همّ ، وقد قلت :

عاشق

ما معي غير كتابي صاحبٌ أنا بعت النــــاسَ طُرًّا بالكتابِ
هو خدني هو خلّي هـــو لي سلوة مِن كل مِن فوق الترابِ





مع كتابي حياتي الجميلة

كلما قلبت أوراق كتابي زاد علمي ، وتذكرت ما نسيت واستيقظت ذاكرتي وسلت نفسي ونسيت كلّ فجة أو عداوة أو أذى وأصبحت في عالم آخر لا بغضا فيه ول احسد ولا غش ولا انتقام إن كتابي حديقتي الوافرة وبستاني الجميل فمعه حياتي الجميلة وأملي المشرق وأخلاقي السعيدة أذا فتحت كتابي ذهب الهم عني وطار النوم مني وشعرت بسرور غامر وسعادة مجنحة وأمل طموح جربت صحبة الأقران وسماع المذياع ورؤية التلفاز والسفر ومشاهدة الطبيعة فما رأيت كالكتاب نفعاً ومتعةً وراحةً وأنساً لأن فيه الآية المحكمة والحديث الصحيح والمثل السائر البيت الشارد والقصة المشجية والحكاية المبكية والطرفة المضحكة والنكتة العجيبة والفائدة الدينية والإيجاز البليغ والإطناب المغري وفية العبرة والحكمة فهو عالم من الضحك والبكاء والأنس والسرور والمتعة والفائدة والمعرفة والتجارب إنه باختصار يضيف أعماراً إلى عمرك

وزهدني في النـــاس معرفـتي بهم وطول اختباري صاحباً بعد صـاحب
فلم ترنـــي الأيـــام خـــلاً تسـرّني مبــاديـه إلا خــانني في العـــواقب
ولا قلت أرجوه لكـــشــف ملـــمةٍ من الدهـــر إلا كـان إحدى المصائب
فــليـس معـــي إلا كتــاب صحـــبه يؤانســـني في شـــرقها والمغـــارب





رفيقُ كتابٍ .. وعاشقُ قراءة

القدرة على القراءة نعمة من نعم الله , كغيرها من الوسائل التي آتاها الله ابن آدم , وإذا أردت أن تعرف هذه النعمة العظيمة فما عليك أيها القارئ , إلا أن تقارن بين نفسك وبين من لا يقرأ من أقاربك أو أصدقائك , لترى الفرق الهائل بينك وبينهم , فأنت تنظر إلى الحروف المترابطة التي تتكون منها الكلمات, والكلمات المتتابعة التي تتكون منها الجمل المفيدة , والجمل المفيدة التي تتكون منها الموضوعات الكاملة , التي قد تثمر كتابًا أو مجلدات , وأنت تتابعها حرفًا حرفا , وكلمةً كلمة , وجملة جملة , وسطرًا سطرا, وموضوعًا موضوعا , وكتابًا كتابا , ومجلدًا مجلدا , تغذي بمعانيها عقلك , الذي لا يزال ينمو ويترقى في سلم أعالي العلوم والمعارف بشتى أنواعها , إلى أن يكون (العقل) ميزانًا لما ينفعك من التصرفات , فيشعل لك بذلك سراج الهداية ؛ لتستضيء به في مسيرة حياتك , وميزانًا لما يضرك من النشاطات , فيرفع لم معلم التحذير من سلوك سبل الباطل , التي تحرضك على سلوكها نفسك الأمارة بسوء , واللهو المردي , والشيطان الرجيم , فيتعاون العقل السليم والفطرة النيرة والوحي المبين على قيادتك إلى ربك لتحقيق ما ترضيه به دنياك وآخرتك.

إن القراءة تصِل القارئ بالعصور الغابرة مِن التاريخ بما فيه مِن خير وشر وتجعله – إذا دوّن أفكاره – متواصلاً مع الأحقاب اللاحقة ، ينقل للأجيال القادمة أحداث عصره وعادات جيله وتاريخ أمته كاشفًا لهم تجارب عصره بما فيها مِن إيجابيات يدعو لاقتفائها وسلبيات يحذّر مِن الوقوع فيها .

أما مَن لم يقدر الله له أن ينال هذه النعمة – نعمة القراءة – فلا تراه يفرق بين المكتوب والمرسوم ، واللعب والجد ، والحق والباطل ، ما يسطر في صفحات الكتب والصحف والمجلات ، والألواح والصخور ، إلا بأن هذا لون وذلك لون صوّرته له الرؤية ، لا يعلم مِن محتواه شيئًا ، ولا يدري ن مضمونه عرفًا ولا نكرا ، يرى الحروف والكلمات والجمل والسطور رؤيةً قد يعجبه جمالها ، دون أن

يعرف ما تحمله في أحشائها مِن جواهر وأصداف أو ما أثقلت به صنوانها الدانية وأغصانها مِن ثمار لذيذة يانعة .

لا فرق بينه وبين صبي خرج لتوه مِن رحم أمه ، أو مجنون فقد عقله ، فكلهم حُرِم مِن التمتع بنعمة القراءة ، إلا أن الصبي والمجنون معذوران بسقوط التكليف عنهما ، وهو مِن المؤهلين لتكليف العيني والواجب الكفائي في أمور دينه ودنياه .





الكتاب أنيسي

إذا تسلى هواة اللهو بالطرب ... وعادت أقزام أهل الزور باللعبِ
فعزلتي عزتي والبيت جامعتي ... ومؤنسي – عندما اخلو بها - : كتبي
لي خمسة بعد ربي والنبي بها ... سعادتي عن جميع العجمِ والعربِ
كتاب علم وأوراقي ولي قلمي ... وقرص خبز مع ثوبٍ وذا أربي
أنا عرفت الليالي مثل معرفتي ... بأهلها فدع الأوطان واغتربِ
ما في الخيام أخو ود نطارحه ... حديث حُبٍ ولاذِكرٍ ولا عجبِ
سافرت في (سوربايا) الشرق ممتطيًا ... ظهر السماء وكاد الجو يرقص بي
وسرت غربًا إلى (لوس أنجلوس) فما ... حصّلت إلا على الإرهاق والتعبِ
جالست كل عظيم مِن معارفنا ... مِن أهل مُلكٍ وعلمٍ أو ذوي أدبِ
نعم سكنت قصور الأرض أحسبني ... أكون أسعد خلق الله عن كتبِ
فعدت لا القلب أسجاه ولا بلد ... ولا صديق ولا شيء مِن النشبِ
لزمت غرفتي الغرّاء مكتفيًا ... بقوت يومي وهذا منتهى طلبي
فمصحفي سلوتي عن كل أمنية ... ودفتري عند رأسي مُذهبُ النصبِ
غدًا أموت كما مات الألى سبقوا ... سلِ القبور ولا تسأل عن السببِ !



محاسن الكتاب

خـــذوا كـــل دنيـــاكم كلها مِن المــال والبهـــرج الأحمرِ
وحوزوا القصور وما قد حوت فـــإني حبيسٌ مـــع الدفــترِ

ولو تعلم ماذا يمنحك الكتاب ، عكفت عليه وسامرته وسافرت به ، وجعلته عند رأسك وفوق صدرك ، فهو أحسن جليس وأوفى صحاب ، إنه ينمي عقلك ويزيد علمك ويذهب همّك ويجلو ذهنك ويكشف شكك وينير دربك ، إنه يعظك وينصحك ويداعبك ويشاجيك ويبكيك ، لا يخون ولا يغدر ، لا يغتاب ولا يغش ، لا يمل ولا يجفو ، لا يتغير على مَر الأيام والليالي ، فخذه معك أينما حللت فإنه يعوضك عن كل صديق ويبعدك عن كل عدو ؛ ومِن حاسد وشامت وبغيض وثقيل ، فهنيئًا لك اصطحابك الكتاب .

أعطني دفترًا ودعــني وحيدًا كيف ترجو طولَ الحياة العبيدا
أغْلِق الباب وافتح اللوح واقرا لتـــرى عـــالمًا وفجرًا جديدا



قم إلى الكتب

كل المظاهر الخداعة كلام فارغ ؛ اجتماعات على الهراء ، لقاءات على الحديث البارد ، وما بقي هناك إلا بيتك وكتابك ، اهرب بجلدك ، فرّ بروحك ، انجُ بدينك ، وفي الحديث ((كفّ عليك لسانك وليسعك بيتك وابكِ على خطيئتك)) شكرًا لعين سهرت مع المعرفة ، شكرًا ليد حملت الكتاب ، شكرًا لقلب وعى الحكمة ، شكرًا لروح أشرقت بالعلم النافع ، وتبًا لمضيع الأوقات ، وتارك الصلوات ، وعابد الشهوات .

مَن يهُن يسهل الهوان عليه   ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

مِن الآن قم ! .. قم إلى الكتب ، خذ كتابًا نافعًا ؛ قلّب أوراقه ، غُص في معانيه ، طالع حروفه ، ردد جمله ، إني لك مِن الناصحين .



خذ الكتاب بقوة

خذ الكتاب بقوة ، احمله في جيبك ، ضعه على صدرك ، ضمه ضم العاشق ، وقلبه تقليب محب ، فتش صفحاته دائمًا لتستخرج منها الكنوز وتبرز منها الحكم ، كتابك هو صاحبك الذي لا يغدر ولا يفجر ولا يتنكر ، خفيف لطيف ، شريف ، قبل أن تضع لباسك في حقيبة السفر ضع الكتاب ، إذا رأيت مَن ألهاه ماله فتلَةًّ بالكتاب وإذا بصرت مَن أشغله منصبه تشاغل بالكتاب ، طالع أسطره ، تأمل حروفه ، كرر عباراته ، فإنه يزهدك في الفاني ويرغبك في الباقي .

الكتاب يسليك عن كل صاحب ويغريك في كل ذاهب ، انقش حِكمه في صدرك وسجل فوائده في ذاكرتك ، عُبَّ مِن غديره ، ارشف مِن نميره ، استنشق عبيره ، اتخذه سميرًا فنِعم الجليس والأنيس هو ، فما بقي إلا حاسد أو شامت أو متكبر أو ثقيل أو غبي أو مخادع .

أحضر لي كتابًا مفيدًا في غرفة خالية ؛ لأسافر بروحي في عالم الملكوت ، وأهاجر بنفسي في فضاء الخلد وجنان القرب ومعراج الزلفى وسُلـّم القبول وديار التفوق والفوز ، وهل الحياة إلا سجدة وتسبيحة وكتاب نافع وقلم يمطر حكمة ؟

دع رُبا نجــد واللوى وتهامةْ　　ما تساوي يا ابن الكرام قلامـةْ
وتحدّث معي عن الكتاب إني　　أعشق الحرفَ سحرَه وغرامةْ
آه ما أحسن الكــتاب جـليسًا　　تـلـقَ نفـعًا وسـلوةً وسـلامةْ





الفصل الثالث
عاشقون .. ومعشوقٌ واحد



ملايين مِن البشر منذ فجر الإنسانية ، وبداية التاريخ ، يُعدّ الكـــتاب معشــوقهم ، على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، وأجناسهم ، وأعراقهم ، وهؤلاء الملايين هُم المـبدعون والمخترعون ، والمكتشفون ، واللامعون ..
كلهم أجمعوا على عشق الكتاب ، والتعلق به ، ومصــــاحبته دائمًا وأبدًا ، أما الخاملون الجاهلون ، الأغبياء ، البلداء ، فلا يحبون الكتاب ، ولا يحبهم الكتاب ! ..

تصفـحـت الكـتـب وتأمـلت فيها فوجدت جيلاً عشق الكـــتاب حـــدّ الجنون ؛ حتى جعله نديمه وحبيبه وخليله ، فعزمت أن أعـــرض في هذا الفصل لمحاتٍ مِن ذلك العشق

وصورًا لذلك الغرام !

فيها كتبُ قيّمة

لقد أبدأ العلماء وأعادوا في بيان قيمة كتب العلم وعظيم أثرها وجلالة موقعها ولهم في ذلك عبارات مشهورة نثرًا وشِعرًا ، نجد كثيرًا منها في مقدمة كتاب (الحيوان) للجاحظ ، وفي كتبه الأخرى كذلك ، وفي (تقيد العلم) و(الجامع) للخطيب ، و(جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر ، وفي مطاوي كتب (أدب الطلب) ، وكتب (التراجم والسير) ، ومقدمات المصنفات التي تتحدث عن (خزائن الكتب) ، ومِن أحسن ما جاء في سيرة عشاق الكتب :



قال الجاحظ في (الحيوان) : ((مَن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده مِن إنفاق عُشّاق القِيان ، والمستهترين بالبنيان ، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًّا وليس ينتفع بإنفاقه حتى يُؤثِر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عِياله ، وحتى يؤمّل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه)) .
وذكر الإمام أبو محمد بن حزم في (رسالة مراتب العلوم) دعائمَ العلم ، فعدّ منها ((الاستكثارُ مِن الكتب ، فلن يخلوَ كتابٌ مِن فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاجَ إليه ، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به ، فإذ لا سبيل إلى ذلك ، فالكتب نِعمِ الخزانة له إذا طُلِب . ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجَد ، وهذا خطأ ممن ذمَّ الإكثار منها ، ولو أُخِذَ برأيه ، لتَلِفَت العلوم ولجاذبهم الجهّال فيها ، وادّعوا ما شاؤوا ! ، فلولا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل)) .
وعُذِل سلمان بن عبد الحميد بن الحموي الحنبلي في كثرة شراء الكتب ، فقال :

وقائلةٍ أنفقتَ في الكُتبِ ما حَوَت ... يمينُك مِن مالٍ فقلتُ : دعيني
لعلي أرى فيها كتابًا يدلني ... لأخذِ كتابي آمِنًا بيميني

وفي كلِّ ما سيأتي مِن الأخبار والقصص لسانٌ ناطق ، وبيانٌ مُشرق ، لقيمة لكتب ومكانتها في نفوس هؤلاء العلماء .

ابن تيمية وشغفه بالبحث

ذكر تلميذه الحافظ بن عبد الهادي في (مختصر طبقات علماء الحديث) طرفًا مِن صفاته فقال : ((لا تكاد نفسه تشبع مِن العلم ، ولا تروى مِن المطالعة ولا تملّ مِن الاشتغال ولا تكلّ مِن البحث ، وقلّ أن يدخل في علمٍ مِن العلوم في بابٍ مِن أبوابه إلا ويُفتح له مِن ذلك الباب أبواب ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حذّاق أهله)) .

وقال الشيخ محمد خليل الهراس : ((كان لابن تيمية بصر نافذ ونفس طُـلَـعَـة لا تكاد تشبع مِن العلم ولا تكل مِن البحث ولا تروى مِن المطالعة مع التوفر عل ذلك وقطع النفس له وصرف الهمة نحوه ، حتى إنه لم ينقطع عن البحث والتأليف طيلة حياته في الشام أو في مصر ، في السجن أو في البيت ، بل إنه كان يتوجع ألمًا وحسرة حينما أخرجوا الكتب والأوراق مِن عنده في أُخرَيات أيامه ...)) .

دواؤه في الكتب

وقال الإمام ابن القيم في (روضة المحبين) : وحدثني شيخنا يعني ابن تيمية قال : ((ابتدأني مرضٌ ، قال لي الطبيب : إن مُطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض قلت له : لا أصبر على ذلك ، وأنا أحاكمك إلى علمك ، أليست النفس إذا فرحت وسُرّت وقويت الطبيعةُ دفعت المرضَ ؟



فقال : بلى ، قلت له : فإن نفسي تُسرّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحةً ،
فقال : هذا خارج عن علاجنا)) ! .

وقال ابن القيم أيضًا : ((وأعرف من أصابه مرض مِن صداع وحُمّى وكان الكتاب عند رأسه ، فإذا وجد إفاقةً قرأ فيه ، فإذا غُلِب وضعه ، فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك فقال : إن هذا لا يحلّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سببًا لِفَوْت مطلوبك)) .

ابن تيمية نموذج للاطلاع المثمر

فرق بين أن يؤلف الإنسان كتابًا فينقل الأقوال ويجمعها في الباب ، وأن يأتي إلى الأقوال فينتقدها ويناقشها ، ويأخذ الصحيح منها ويترك الضعيف ، ويستفيد مِن العبارات ويقوّم المعوج منها ، ويثني على الطيب ويعقّب على الواهن والضعيف ، هذا ما يفعله ابن تيمية : فإنه لا يقبل القول على عواهنه ، بل يناقش الأقوال عبارة عبارة ، وفصلاً فصلاً ، ويشيد بالحسن الجميل ، ويرد الواهي الهزيل ، وتجده يتجرأ حتى على الأكابر في كثير مِن المسائل ، ويبين الوهم في كل مسألة ويجمع أطراف الموضوع ، ويأخذ المعلومة فيوظفها هو بعبارته ويكسوها بجلباب جمله الآسرة الأخاذة ؛ فإن له قاموسًا خاصًا ، فيه مِن الجلالة والفخامة والإشراق ما امتاز به هذا الرجل فكأنه شاعر موهوب عبقري يمتاز عن بقية الشعراء ، وكذلك ابن تيمية في المؤلفين ، له رونق خاص وديوان متفرد يُعلم أنه مِن كلامه لجلالة حديثه وسمو عباراته .



نقضه بالدليل لكثير مِن المسائل المقررة

كم مِن مسألة قررت في كتب الفقه وبخاصة كتب المذاهب ، وجاء هذا الإمام وبيّن أن الحق في خلافها : خذ مثلاً المذهب الحنبلي الذي نشأ عليه ابن تيمية وأهل بيته , كم من مسألة قررت ودرسها الناس ونشأ عليها طلبة العلم , فلما جاء هذا الإمام بيّن أن



الحق خلافها , فالحنابلة ــ مثلاً ــ يبدؤون كتب الفقه بقولهم : المياه ثلاثة أقسام , وابن تيمية يخطئهم ويقول : المياه قسمان فقط : طاهر ونجس , ويقولون ــ مثلاً ــ إذا اشتبهت ثياب طاهرة بنجسة صلى بعددها وزاد صلاة , فيبين أن هذا من الآصار والأغلال , واشترطوا مسافة محددة بالأميال في السفر , فيبين أن هذا ليس موجودًا في الكتاب ولا في السنة , بل لا يسمّى سفرًا أيضا . وفي مسائل الحيض أتوا بمسائل شاقة على المرأة فبين أن السنة خلاف ذلك بالدليل والبرهان , وفي مسائل المعاملات والبيع والشراء والصرف والإجازة وغيرها من الأبواب بيّن ونقض .

قراءة ابن الجوزي

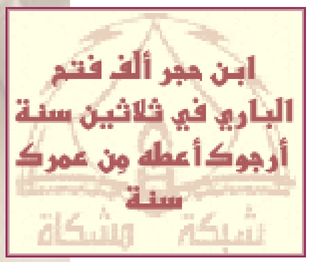
قال ابن الجوزي عن نفسه في (صيد الخاطر) : أثناء حديثه عن المطالعة والإكثار منها : ((وإني أخبر عن حالي : ما أشبع مِن مطالعة الكتب ، وإذا رأيت كتابًا لم أره ، فكأني وقعت على كنز ولقد نظرت في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية ، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلّد ، وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحُميدي وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر وكتب أبي محمد بن الخشاب ، وكانت أحمالاً ، وغير ذلك مِن كل كتاب أقدر عليه . ولو قلت : إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر ، وأنا بعدُ في الطلب)) ! . وهو يوصي – أيضًا – العالِم وطالبَ العلم بقوله : ((ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه وتحادث سطور كتبك وتجري في حلبات فكرك)) .



وهذه نصيحة ربما قلَّ مَن يطبقها في زماننا هذا ، ولا عجب بأن وصول هؤلاء العلماء إلى ما وصلوا إليه هو باشتغالهم بطلب العلم عن الدنيا واهتمامهم بالمكتبات والكتب على قلتها وصعوبة الوصول إليها ، بعكس ما هو عليه الحال اليوم مِن يسر وسهولة في الحصول عليها ، يقابله ابتعاد وهجر لها .

ابن عقيل وفنُّ استغلال الوقت

ذكر ابن رجب الحنبلي في (الذيل على طبقات الحنابلة) في ترجمة ابن عقيل الحنبلي ، عن ابن الجوزي أنه قال عنه : ((كان دائم التشاغل بالعلم ، حتى إني رأيت بخطّه : إني لا يحلّ لي أن أضيع ساعةً مِن عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مُطالعة ، أعملتُ فكري في حالة راحتي وأنا مُستطرِح فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد مِن حرصي على العلم وأنا في عَشْر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة)) .



ونقلَ ابنُ رجب مِن (الفنون) لابن عقيل أنه قال عن نفسه : ((أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتى أختار سفَّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما مِن تفاوت المضغ ، توفّرًا على مطالعةٍ أو تسطير فائدة لم أدركها فيه)) .

وللأسف فإن جيلنا اليوم اشتغل بالدنيا عن العلم ولم يعد للعلم نصيبٌ يذكر مِن ساعات حياته والتي غلبت عليها الماديات ، وأصبحت قيمة الرجل بما يملك مِن مال لا بما يملكه مِن علم وهذه مِن الأمور التي يندى لها الجبين وتقشعر لها الأبدان .

مع المقريزي تحت الأرض

ذكر الإمام المقريزي في (المقفّى الكبير) العلامةَ ابن صدقة الحموي أنه كان كثيرَ الاشتغال بالعلم دائم التحصيل له ، وذكر عن الحافظ المنذري أنه قال : ((دخلت عليه يومًا وهو في سَرَبٍ تحت الأرض لأجل شدة الحر وهو مشتغل ، فقلت له : في هذا المكان ؟ وعلى هذه الحال ؟! فقال : إذا لم أشتغل بالعلم ، ماذا أصنع ؟ ... قال المنذري : إنه وُجِد في



تركته محابر ثلاث ، أحدها تَسَعُ عشرة أرطال والأخرى تسعة ، والثالثة ثمانية)) .
ومع ما نملكه اليوم مِن وسائل التبريد التي تخفف عنا الحر إلا أننا نشكو الزهد في حُب العلم والاهتمام به

كتبٌ أغلى مِن الذهب

وفي ترجمة الحافظ أبي طاهر بن أبي الصقر في (المنتظم) لابن الجوزي أنه قال عنه : ((كان من الجوّالين في الآفاق والمكثرين مِن شيوخ الأمصار ، وكان يقول : هذه كتبي أحبّ إليّ مِن وزنها ذهبًا)) .
فلله درها مِن نفوس أنفت أن تضع هممها في الأرض وأبت إلا أن ترفع هاماتها إلى السماء لتحلق بين سحاب العلم ، وتعيش بين صفحات الكتب .

أعجوبة في حفظ الوقت

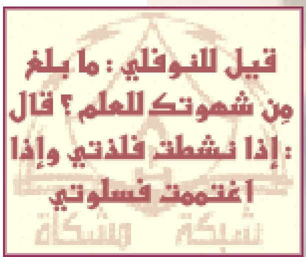
قال الحافظ السخاوي في (الضوء اللامع) في ترجمة أحمد بن سليمان بن نَصر الله البُلقاسي ثم القاهري الشافعي المتوفى في ريعان شبابه : ((وكان إمامًا علامة قوي الحافظة ، حسنَ الفاهمة ، مشاركًا في فنونٍ ، طَلْق اللسان ، محبًّا في العلم والمذاكرة والمباحثة ، غير منفك عن التحصيل ، بحيث إنه كان يُطالع في مشيه ويُقرئ القراءات في حال أكله خوفًا مِن ضياع وقته في غيره ، أعجوبة في هذا المعنى ، لا أعلم في وقته مَن يُوازيه فيه ، طارحًا للتكلف ، كثير التواضع مع الفقراء ، سهمًا على غيرهم ، سريع القراءة جدًا)) .



وللوصول إلى قوة الحفظ والفهم طرائق ووسائل ، وطالما أن المؤثرات الصوتية والبصرية في حياتنا محيطة بالإنسان في عصرنا هذا مِن كل جهة ، فإن هذا الأمر مِن شأنه تشتيت الذهنِ وعدم صفائه ، فالأولى بطالب العلم الابتعاد عن مثل هذه المؤثرات وخاصةً إذا ما كان ضررها أكثر مِن نفعها .

خمسون سنة إما يطالع أو يكتب

قال السخاوي في (الضوء اللامع) في ترجمة محمد بن أحمد بن محمد العُمري الصغاني : ((كان إمامًا علامة متقدمًا في الفقه والأصلين والعربية ، مشاركًا في فنون ، حسن التقييد ، عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء ، بحيث بلغني عن أبي الخير بن عبد القوي أنه قال : أعرفه أزْيَد مِن خمسين سنة ، وما دخلت إليه قط إلا ووجدته يُطالع أو يكتب)) .



لقد أوصى الحكماء والأدباء والعقلاء وكل مَن يسعى إلى الرقي بالنفس البشرية والبحث عن سعادتها ، أوصوا بالقراءة والمطالعة والاستفادة مِن الوقت ، لِما في ذلك مِن تأثير إيجابي على ثقافة الفرد والرقي بالمجتمعات .

عشق في كل مكان

قال ابن القيم – رحمه الله – في (روضة المحبين) وهو يتكلم عن عِشق العلم : ((وحدثني أخو شيخنا (يعني أحمد بن تيمية) عبدُ الرحمن بن تيمية ، عن أبيه (عبد الحليم) قال : كان الجدُّ (أبو البركات) إذا دخل الخلاء يقول لي : اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع)) .
فلله درها مِن نفوس عشقت العلم ، وضحّت مِن أجله ، وتبنته نبراسًا ومنهاجًا في حياتها ، فصار طعامها وشرابها وهواءها .

مطالعة حد الإدمان

قال السخاوي في (الضوء اللامع) في ترجمة أحمد بن علي بن إبراهيم الهيتي الشافعي : ((برع في الفقه وكثُر استحضاره له ، بل وللكثير مِن (شرح مسلم) للنووي ، لإدمانه نظره فيه ، وكان لا يملّ مِن

المطالعة والاشتغال مع الخير والدين والتواضع ، والجد المَحْض ، والتقلل الزائد ، والاقتدار على مَزِيد السهر)) .
وشتان بين إدمانه وإدمان شبابنا اليوم – إلا مَن رحم ربك – ممن أسرتهم المسكرات والمخدرات الموبقات فلا حولا ولا قوة إلا بالله .

الكتاب رفيقه في السفر والحضر

قال السخاوي في (الضوء اللامع) في ترجمته الإمام اللغوي محمد بن يعقوب الفيروزآبادي أنه اقتنى كتب نفيسة حتى سمعه بعضهم يقول : ((اشتريت بخمسين ألف مثقالٍ ذهبًا كتبًا ، وكان لا يسافر إلا وصحبته منها عدةُ أحمال ، ويُخرِج أكثرَها في كل منزلةٍ فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل)) .
ومثله السيد صلاح بن أحمد المؤيدي اليماني ، قال عنه الشوكاني في (البدر الطالع) : ((كان مِن عجائب الدهر وغرائبه ، فإن مجموع عمره تسع وعشرون سنة ، وقد فاز مِن كل نصيب فنٍّ بنصيبٍ وافر وصنَّف في هذا العصر القصير التصانيف المفيدة والفوائد الفريدة العديدة – وذكر عدد منها ثم قال - : وإذا سافر أول ما تُضرَب خيمةُ الكتب ، وإذا ضُرِبت دخل إليها ، ونشرَ الكتبَ والخدم يصلحون الخِيم الأخرى ، ولا يزال ليله جميعه ينظر في العلم ، ويحرر ويقرر مع سلامة ذوقه ...)) .



إن الكتاب مِن أروع رفقاء السفر ، فإنك تجده قاطعًا للصمت ، طاويًا للمسافات ، يمضي بالوقت مِن غير أن تشعر ، فلا تمل مِن طول السفر وبعده ، وفي الوقت نفسه يكسبك الكثير مِن الفائدة ، مما يساعد في تنمية ذاتك وتطويرها .

مع الكتاب والمحبرة دائمًا

قال الجَنَدي السكسكي في (السلوك في طبقات العلماء والملوك) في ترجمة أبي الخير بن منصور الشماخي السعدي بعد ثنائه عليه : ((ولم يكن له في آخر عمره نظير بجودة العلم وضبط الكتب بحيثُ لا يوجد لكتبه نظير في الضبط ، أخبرني جماعةٌ ممن أدركه أنه كان لا يوجد إلا وعنده كتابٌ ينظر فيه ، ومحبرة وأقلام يصلح بهما ما وجَدَ في الكتاب ، مات سنة 680 هـ بعد أن جمعت خزانتُه مِن الكتب ما لم تجمعه خزانة غيره ممن هو نظير له)) .



فما أشقى أن يُستبدَل جمع الطوابع والصور بجمع الكتب ، وكيف بأمة تدنى حالها إلى هذا لمستوى أن تصل مصاف العالم المتحضر وريادة الكون ؟! .

يبول (دمًا) في طلب الحديث !

إذا كان منا اليوم مَن يخشى على إنفاق المال أو ضمور الأعصاب أو ارتفاع الضغط في سبيل العلم لساعة أو ساعتين جعلهما مِن يومه للاستذكار وطلب العلم ، فما بالكم بمن كان يبول دمًا في طلب الحديث ؟! ؛ فقد ذكر الذهبي في (تذكرة الحفّاظ) عن ابن طاهر المقدسي أنه قال : بلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين ، مرّة ببغداد ومرة بمكة .كنت أمشي حافيًا في الحر فلحقني ذلك ، وما ركبتُ دابة قط في طلب الحديث ، وكنت أحمل كتبي على ظهري وما سألت في حال الطلبِ أحدًا ، كنت أعيش على ما يأتي)) .



كل المال مقابل العلم

وفي ترجمة الإمام الحافظ الحسن بن أحمد الهمذاني في (الذيل على طبقات الحنابلة) عن تلميذه الحافظ عبد القادر الرهاوي أنه قال عنه : ((وكان عفيفًا

مِن حُب المال ، مهينًا له ، باع جميع ما ورثـه – وكـان مِن أبنـاء التجـار – فأنفقه فـي طلب العلم ، حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرّات ماشيًا يحمل كتبه على ظهره)) .
ولما استقرَّ في بلده – بعد عودته مِن رحلته – عمل دارًا للكتب وخزانةً وقفَ جميع كتبه فيها ، وكـان قد حصّل الأصول الكثيرة ، والكتب الكبار الحسان بالخطوط المعتبرة .

متاعه في السفر حديث رسول الله

وفي (سير أعلام النبلاء) – أيضًا - : ((قال الحافظ يحيى بن عبد الوهاب (ابن منده) : كنت مع عمي عبيد الله في طريق نيسابور ، فلما بلغنا بئر مَـجَـنّـة قال عمي : كنت ها هنا مرة فعرض لـي شيخ جمّال ، فقال : كنتُ قافلاً مِن خراسان مع أبي ، فلما وصلنا إلى ها هنا ، إذا نحن بـأربعين وِقْـرًا مِن الأحمال فظننا أنها منسوج الثياب وإذا خيمة صغيرة فيها شيخ فإذا هو والدك فسأله بعضنا عن تلك الأحمال ، فقال : هذا متاعٌ قـلّ مَن يرغب فيه في هذا الزمان ، هذا حديث رسول الله ρ)) .

راجلاً إلى بغداد لتوثيق المسائل

وفي (طبقات الحنابلة) لابن أبي يَعلى و(تذكرة الحفاظ) للذهبي في ترجمة إسحاق بن منصور الكَـوْسَج : ((عن حسان بن محمد قال : سمعت مشايخنا يذكرون : أن إسحاق بن منصور بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك المسائل التي علّقها عنه . قال فجمعَ إسحاق بن منصور تلك المسائل في جِرابٍ وحملها على ظهره وخرج راجلاً إلى بغداد وهي على ظهره وعرض خُطوطَ أحمد عليه في كل مسألة استفتاه فيها ، فأقرّ له بها ثانيًا ، وأُعـْجِـب أحمدُ بذلك مِن شأنه)) .

الذي لا يقرأ تلعب به الوساوس وتستخفه الأماني وتقلقه الشائعات
شبكة مشكاة

مِن تبريز إلى المعرة في سبيل العلم

وذكر يـاقوت فـي (معجم الأدبـاء) ، والقِفطـي فـي (إنبـاه الـرواة) وعنـه ابن خلكان في (الوفيات) في ترجمة اللغوي ابن الخطيب التبْـريزي أنـه حصلت لـه نسخة لكتاب الأزهري (تهذيب اللغة) في عدة مجلدات لِطاف وأراد أخذها عن عـالمٍ باللغة فدُلّ على أبي العلاء المعرّي فجعلها في مِخلاة وحملها على كتفه مِن تبريز إلى المعرّة – ولم يكن يستأجر به مركوبًا – فنفـذ العرق مِن ظهره إليها .
وقيل : إنها ببعض الوقوف البغدادية وأن الجاهل بخبرها إذا رآها يظن أنها غريقة ، وليس الذي بها إلا عَرَق يحيى بن علي – رحمه الله - .

كان بعضهم ينام بين الكتب مِن ولهه بها
شبكة مشكاة

عقد على عجوز لتخدمه ويتفرغ للمطالعة

قـال الـذهبي فـي (سـير أعـلام النـبلاء) فـي ترجمـة عيسـى بـن أحمد اليـونيني : ((لـم يشـتغل إلا بالعبـادة والمطالعة وما تزوج بل عقد على عجوزٍ تخدمه)) .

إما ينسخ ،أو يُدرّس ، أو يقرأ

وفي (تبيين كذب المفتري) لابن عساكر أنه قال في ترجمة الفقيه سُلَيم بن أيوب الرازي : ((حُدّثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس ، لا يدع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة إما ينسخ أو يُدرّس أو يقرأ ، ولقد حدثني عنه شيخُـنـا أبو الفرج الإسفراييني أنـه نزل يومًا إلـى داره ورجع ، فقال : قد قرأتُ جزءًا في طريقي)) .

لا لذة له في غير جمع الكتب

جاء في (السِيَر) للذهبي في ترجمة المستنصر بالله أبي العاص الحكم بن عبد الرحمن الأُموي ، صاحب الأندلس أنه ((كان جيّد السيرة ، وافر الفضيلة .. ذا غرامٍ بالمطالعة وتحصيل الكتب النفيسة الكثيرة حقها وباطلها بحيث أنها قاربت نحوًا مِن مئتي ألف سِفر ... وكان باذلاً للذهب في استجلاب الكتب ويُعطي مَن يتّجِر فيها ما شاء ، حتى ضاقت بها خزائنه لا لذة له في غير ذلك . وكان الحَكَمُ موثـّقًا في نقله ، قَلّ أن تجد له كتابًا إلا وله فيه نظرٌ وفائدة ، ويكتب اسمَ مؤلفه ونسبه ومولده ويُغرب ويُفيد)) .



الاشتغال عن النوافل لمطالعة كتاب

وفي ترجمة الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد مِن كتاب (الطالع السعيد) للأذفوي أنه لما وصل إليه كتاب (الشرح الكبير) للإمام الرافعي – وكان اشتراه بألف درهم – اشتغل بمطالعته وصار يقتصر مِن الصلوات على الفرائض فقط .

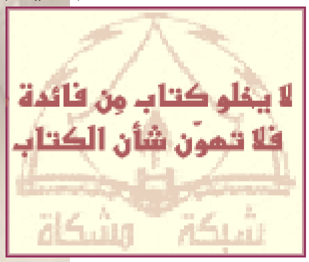
القراءة حتى في المجالس الخاصة

قال ابن القاضي المِكناسي في (دُرّة الحِجال) في ترجمة محمد بن علي بن سليمان السَّطي : ((وكان مُقبلاً على ما يعنيه ، مُكبًّا على النظر والقراءة والتقييد ، لا تراه أبدًا إلا على هذه الأحوال حتى في المجلس السلطاني ...)) .

ونحوه عن أبي العباس اللغوي المعروف بثعلب ، فقد جاء في كتاب : (الحث على طلب العلم والاجتهاد في جَمعه) لأبي هلال العسكري قال : ((وحُكي عن ثعلب أنه كان لا يُفارقه كتابٌ يدرسه ، فإذا دعاه رجل إلى دعوةٍ ، شَرَط عليه أن يوسعَ له مقدارَ مِسْوَرَة يضعُ فيها كتابًا ويقرأ)) .

ثلاثة لا يُعلمُ أكثر منهم محبة للقراءة

ذكر ياقوت الحموي في (إرشاد الأريب) في ترجمة الجاحظ قا : ((وحدّث أبو هِفّان قال : لم أرَ قط ولا سمعتُ مَن أحبَّ الكتبَ والعلومَ أكثر مِن الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتابٌ قطُّ إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيتُ فيها للنظر . والفتح بن خاقان ، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابًا مِن كُمه أو خُفّه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عوده إليه حتى في الخلاء . وإسماعيل بن إسحاق القاضي فإني ما دخلت إليه إلا رأيته يَنظر في كتابٍ أو يُقلب كتبًا أو ينقضها)) .



مجلسه بين كتبه أفخم مِن مجلسه بين حاشيته

قال الجاحظ في (الحيوان) : ((ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته فرأيت السماطين والرجال مُثـُولاً كأنّ على رؤوسهم الطير ورأيت فِرشته وبِزّته ثم دخلتُ عليه وهو معزول وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيته قط أفخمَ ولا أنبلَ ولا أهيبَ ولا أجزلَ منه في ذلك اليوم لأنه جمع مع المهابة المحبّة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحِكمة)) .

أربعون عامًا لا ينام إلا والكتاب على صدره

قال الجاحظ في (الحيوان) : ((سمعت الحسن اللؤلؤي يقول : غَبَرَتْ أربعون عامًا ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتكأتُ إلا والكتاب موضوعٌ على صدري)) .



إذا غلبه النوم أمسك كتابًا ليطرده

((قال ابن الجهم : إذا غشيني النعاسُ في غير وقت نومٍ – وبئس الشيءُ النومُ الفاضلُ عن الحاجة – قال : فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتابًا مِن كتب الحِكَم فأجدُ اهتزازي للفوائد والأريحية التي تعتريني عند الظّفَر ببعض الحاجة والذي يغشى قلبي مِن سرور الاستبانة وعزّ التبيين أشدّ إيقاظًا مِن نهيق الحمير وهَدّة الهـدم)) .

ضعف بصره مِن كثرة المطالعة

وفي ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي صاحب (الكمال) مِن كتاب (ذيل الروضتين) لأبي شامة المقدسي قال : ((وكان ضعف بصره مِن كثرة المطالعة والبكاء وكاد أوحدَ زمانه في علم الحديث)) .

مع الكتاب في كل حين

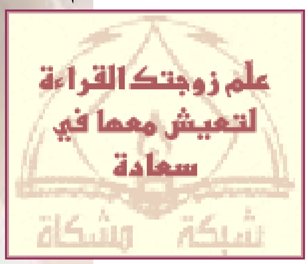
قال السخاوي في (الجواهر والدرر)عن شيخه ابن حجر : ((إنما كانت همته المطالعة والقراءة والسماع والعبادة والتصنيف والإفادة ، بحيث لم يكن يُخلي لحظةً مِن أوقاته عن شيءٍ مِن ذلك , حتى في حال أكله وتوجهه وهو سالك , كما حكى لي ذلك بعض رفقته الذين كانوا معه في رحلته , وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه . وقد سمعته – رحمه الله – يقول في غير مَرّة : إنني لأتعجب ممن يجلس خاليًا عن الاشتغال)) !.

مع الكتب حتى في الجنة

ذكر ابن رجب في (ذيل الطبقات) عن ابن الجوزي أنه قال عن الإمام أبي العلاء الهَمَذَاني الحافظ : ((بلغني أن رُئيَ في المنام في مدينةٍ جميع جدرانها مِن الكتب وحوله كتب لا تُحدّ وهو مُشتغل بمطالعتها فقيل له : ما هذه الكتب ؟ قال : سألتُ الله أن يُشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا فأعطاني)) .

ويبيع بيته ليشتري كتبًا

ومما يدلك على عظيم شغفه بالكتب , وبذله في تحصيلها كل نفيس حتى داره التي يسكنها , ما في كتاب ابن رجب عن الإمام طلحة العَلثي قال ((بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد , فحضرها الحافظ أبو العلاء الهمذاني , فنادوا على قطعة منها : ستين دينارا , فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين دينارًا , والإنظار مِن يوم الخميس إلى يوم الخميس .



فخرج الحافظ , واستقبل طريق همذان , فوصل , فنادى على دار له , فبلغت ستين دينارًا , فقال : بيعوا , فقالوا : تبلغ أكثر من ذلك , فقال : بيعوا , فباعوا الدار بستين دينارًا فقبضها , ثم رجع إلى بغداد ,فدخلها يوم الخميس , فوفى ثمن الكتب , ولم يشعر أحد بحاله إلا بعد مدة)) .

ومثله ابن الخشاب

حيث ذكر ابن رجب في (ذيل الطبقات) في ترجمة العلامة النحوي عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب : أنه اشتري يومًا كتابًا بخمس مئة دينار ولم يكن عنده شيء , فاستمهلهم ثلاثة أيام , ثم مضى ونادى على داره , فبلغت خمس مئة دينار , فنقد صاحبها وباعه بخمس مئة دينار , ووفى ثمن الكتاب.

حتى أحلام اليقظة في الكتب

ذكر السَّمهودي في (جواهر العقدين في فضل الشرفين) عن شيخه ابن زكريا المناوي قال : أخبرني شيخنا الشيخ ولي الدين (يعني أبا زرعة بن الحافظ زين الدين العراقي) مذاكرة :أنه ركب مع شخص من المكاريّة من طائفة الرياقة , قال: فقلت في نفسي ـ وقد خاضت في الأمل ـ :لو كان لي أربع زوجات في أربع مساكن , وفي كل مسكن من الكتب التي احتاجها نظير ما في بقية المساكن)) .

مع الكتاب ليلاً ونهارًا

نقل ابن رجب في (ذيل الطبقات) في ترجمة العلامة أبي البقاء عبد الله ابن الحسين العُكبري عن ابن النجار قوله ((قرأت عليه كثيرا من مصنفاته , وصحبته مدة طويلة ... وكان محبًا للاشتغال والإشغال , ليلا ونهارا , ما يمضي عليه ساعة إلا وواحد يقرأ عليه , أو مطالع له , حتى ذكر لي أنه بالليل تقرأ له زوجته في كتب الأدب وغيرها)).

التحسر على الكتب وجعلها بمنزلة الولد

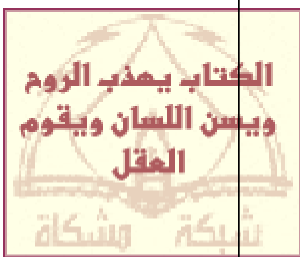
وذكر ابن رجب ـ أيضًا ـ في (الذيل) في ترجمة عبد الصمد بن أحمد ابن أبي الجيش البغدادي العلامة المتفنن أنه صنف خطبًا انفرد بفنها وأسلوبها وما فيها من الصنعة والفصاحة , وجمع منها شيئا كثيرًا , ذهب واقعة بغداد مع كتب له أخرى بخطه وأصوله , حتى كان يقول : ((في قلبي حسرتان : ولدي وكتبي)) , (وكانا قد فقدا جميعا في واقعة بغداد).

لا يمشي إلا وفي يده كتاب

وكان كثير من المشاهير العلماء لا يمشي إلا وفي يده كتاب أو أجزاء يطالعها وذلك لمزيد شغفهم بالقراءة والاطلاع وعظيم حرصهم على أوقاتهم من الضياع :



* قال الذهبي في (الميسر) : ((قال ابنُ الآبنوسي : كان الحافظ الخطيب وهو يمشي وفي يده جُزْءٌ يُطالعه)) .
* وفي (تذكرة الحافظ) للذهبي في ترجمة أبي داود السجستاني صاحب (السنن) : ((قال ابنُ داسة: كان لأبي داود كُمٌّ واسع وكُمٌّ ضيّق فقيل له في ذلك ؟ فقال : الواسع للكتب والآخر لا يُحتاج إليه))
* وفي ترجمة العلامة النحوي أحمد بن يحيى المعروف بَثعْلَب من كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان قال ((كان سبب وفاته : أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر وكان قد لحقه صَمَمٌ لا يسمع إلا بعد تعب وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق فصدمَتْه فرس فألْقَتْهُ في هُوَّةٍ فأُخرج منها وهو كالمتخبط فحُمِل إلى منزله على تلك الحال وهو يتأوّه من رأسه فمات ثاني يومٍ)) .
* وذكر العسكري في (الحث على طل العلم) : أن أبا بكرٍ الخياط العلامة النحوي محمد بن أحمد البغدادي كان يَدْرُسُ جميع أوقاته حتى في الطريق وكان ربَّما سقط في جُرْف أو خبطته دابة .
* وكان كثير من العلماء يُقرأ عليه الكتاب وهو يمشي في الطريق صِيانة للوقت وحبًّا في الإفادة كما هو الحال في ترجمة الحافظ أبي نعيم الأصبهاني صاحب (الحلية) كما في تذكرة الحافظ .
* وكذلك في ترجمة الإمام علم الدين السخاوي المقرئ كما في ترجمته من كتاب (طبقات القراء الكبار) .



أستوفى مكتبته قراءة وفيها سبعمائة مجلد

ورد في ترجمة أبي بكر بن أحم تقي الدين ابن قاضي شُهبة من (الضوء اللامع) أنه قال : ((وكتب بخطه كثير بحيث لو قال القائل : إنه كتب مئتي مجلد لم يتجاوز ، وخطه فائق دقيق ، وبِيْع في تركته نحو سبعمائة مجلد كاد أن يستوفيها مطالعة)) .

يقطع الليل جميعه في القراءة على السراج

* ذكر القاضي عياض في (ترتيب المدارك) في ترجمة الإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التَّبَّان أنه قال عن نَفْسِه : كنت أول ابتدائي أدرس الليل كله فكانت أُمي تنهاني عن القراءة بالليل فكنت آخذ المصباح وأجعله تحت الجفنة و أتعمَّد النوم , فإذا رقدت أخرجت المصباح وأقبلت على الدرس .

قال القاضي : ((وكان كثير الدرس , ذكر أنه درس كتابًا ألف مرة)) .

* وذكر الوزير القفطي في (إنباه الرواة)في ترجمة أبي القاسم ابن أبي منصور النحوي الحلبي المعروف بابن الحبراني ـ وكان الوزير قد صحبه وجالسه ــ : ((أنه كان شديد الاجتهاد في طلب الفوائد من صفحات الصحف , فلازم المطالعة ليلاً ونهارًا , وتلزم الحفظ لبعض ما يمر به في أثناء ذلك .

قال : ولقد حكى لي الشريف أبو هاشم ابن أبي حامد , صديقي ـ رحمه الله ـ قال : أخبرني جار له , قال : رأيت ابن الحبراني النحوي في زمن الصيف , يقومِ في الليل الأخير في سطحه , ويَقِدُ سراجًا في موضع خال من الهواء , ويقعد للمطالعة وقتًا طويلاً دائمًا في كل ليلة , لا يشغله الحر ولا القرُ عن المطالعة والاستفادة)) .

مشغوف بجمع الكتب



ذكر الحافظ ابن حجر في (الدرر الكامنة) في ترجمة شافع بن علي الكناني : ((أنه كان يحب جمع الكتب , حتى أنه لما مات ترك نحو العشرين خزانة ملأى من الكتب النفيسة , وكان من شدة حبه للكتب , إذا لمس الكتاب يقول : ((هذا الكتاب الفلاني , ملكته في الوقت الفلاني , وإذا طلب من أي مجلد كان , قام إلى الخزانة فتناوله كأنه كما وضعه فيها)) .

التألم والحسرة عل بيع الكتب

*قال ابن خلكان في ترجمة الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الطاهر في كتابه (وفيات الأعيان) : ((حكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي اللغوي , أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك الفالي الأديب, كانت لو نسخة بكتاب (الجمهرة) لابن دريد في غاية الجودة , فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها , واشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم ــ المذكور ــ بستين دينارا, وتصفحها فوجد بها أبياتا بخط بائعها أبي الحسن وهي :



أنست بها عشرين حولاً وبِعتها لقد طال وجْدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ صغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني
فقلتُ ولم أملك سوابق عَبرةٍ مقالة مكويّ الفؤادِ حزين
(وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أمّ مالكٍ كرائمَ مِن ربٍّ بهنّ ضنينِ)

*وذكرى السخاوي في (الضوء اللامع) في ترجمة إبراهيم بن علي بن احمد الدين القلقشندي القاهري أنه باع كتبه أو جلّها قال : وقاسَى ما لا يُعَبِّر عنه ، وتألمنا له في ذلك !.

همة تهد الجبال

كان الشيخ العلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي يقول عن نفسه وهو يتكلم على علو الهمة في كتابه (الفضل المبين) : ((وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة ((صحيح مسلم)) بتمامه رواية في أربعين يومًا ،

وقراءة ((سنن بن ماجه)) كذلك في واحدٍ وعشرين يومًا ، وقراءة ((الموطأ)) كذلك في تسعة عشر يومًا ، وقراءة ((تهذيب التهذيب)) مع تصحيح سهو القلم فيه وتحشيته في نحو عشرة أيام)) .

جهاد من أجل القراءة

وذكر عن الشيخ محمد بدر الدين الحسني العلاقة الحدث أنه ((حفظ الصحيحين غيبًا بأسانيدهما , ونحو(20ألف) بيت من المتون العلمية)) , وكان شديد التشاغل بالعلم والعكوف على طلبه والانقطاع إليه , حتى بلغ من ذلك شيئا عظيمًا ، قال عنه الشيخ الطنطاوي – رحمه الله - ((بل كان يجلس في الليل ليقرأ فإذا غلبه النعاس اتكأ برأسه على وسائد أُعِـدت له فأغفى ساعتين أو ثلاثًا مِن الليل متقطعات ، ومِن النهار ساعة)) .



وقال : ((كان يقرأ دائمًا لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائمًا أو في صلاة أو درس ، أو في طريق مِن المسجد إلى البيت ، ما فارق الكتب قط ولا استعان على النظر بنظارة وقد مات حديد البصر صحيحه ، وما أحبَّ في الدنيا غير الكتب ، فكان يشتري الكتاب يسمعُ به ولو كان مطبوعًا في أقصى الهند ويشتري المخطوط ولو بوزنه ذهبًا ، ولا يدع كتابًا حتى يقرأه ، أو يتصفحه تصفح المتثبت)) .

في المقبرة أو مع الكتاب

قال الجاحظ في كتاب (الحيوان) : ((قال ابن داحة : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس وينزل مقبرة مِن المقابر وكان لا يكاد يُرى إلا وفي يده كتابٌ يقرؤه فسُئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة فقال : لم أرَ أوعظ مِن قبر ، ولا أمنعَ مِن كتاب ولا أسلمَ مِن الوَحدة . فقيل له : قد جاء في الوَحدة ما جاء ! ، فقال : ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل !)) .



مع النبي وأصحابه

كانت رسالة النبي ρ مرتكزة في أساسها على القراءة والدعوة إليها ، فكانت كلمة (اقرأ) هي أول كلمة ألقيت على سيدنا محمد ρ ، ولذا فقد انعكس تطبيق هذا الأمر على جميع شؤون حياته ρ ومن اقتفى أثره مِن الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم كما سنرى :

كيف أستوحش ؟!

ذكر الذهبي في (السير) : ((عن نُعيم بن حماد قال : كان ابن المبارك يُكثِر الجلوسَ في بيته ، فقيل له : ألا تستوحِش ؟ فقال : كيف أستوحِشُ وأنا مع النبي ρ وأصحابه ؟)) وأسند الخطيب في (تقييد العلم) عن ابن المبارك قوله : مَن أحبّ أن يستفيد فلينظر في كتبه .

حَرُّ الصيف وبرد الصحبة



وفي (تاريخ بغداد) : ((أن يحيى بن (محمد بن يحيى) الذُّهلي قال : دخلتُ على أبي في الصيف وقت القائلة وهو في بيت كتبه وبين يديه السراج وهو يصنّف ، فقلت : يا أبتِ هذا وقتُ الصلاة ودُخانُ هذا السراج بالنهار فلو نفّست عن نفسك ، قال : يا بُنيّ تقول لي هذا وأنا مع رسول الله ρ وأصحابه والتابعين)) ؟ .

جلساء ما يُملُّ حديثهم

ساق ابن عبد البر بسنده في (جامع بيان العلم وفضله) أن أحمد بن محمد بن شجاع بعثَ غلامًا مِن غِلمانه إلى أبي عبد الله ابن الأعرابي يسأله المجيءَ إليه ، فعاد إليه الغلام فقال : قد سألته ذلك فقال لي : عندي قوم مِن الأعراب فإذا قضيت أربي منهم أتيت ، قال الغلام : وما رأيت عنده أحدًا إلا أن بين يديه كتبًا ينظر فيها فينظر في هذا مرّة وفي هذا مرّة ، ثم ما شعرنا حتى جاء ، فقال له أبو أيوب : يا أبا عبد الله ، سبحان الله العظيم تخلّفت عنا وحرمتنا الأنس بك ولقد قال لي الغلام : إنه ما رأى عندك أحدًا ، وقلتَ : أنا مع قوم مِن الأعراب فإذا قضيتُ أربي معم أتيتُ فقال ابنُ الأعرابي :

لـنـا جلسـاءُ ما نـمَـلُّ حـديثهم ... أَلِبّاءُ مأمونـون غيـبًا ومَشهدا
يفيدوننا مِن علمهم علمَ ما مضى ... وعقـلاً وتأديـبًا ورأيًا مُـسـدّدا
بِلا فتـنةٍ تُخشى ولا سوء عِشرة ... ولا يُـتـقى منـهم لسـانًا ولا يدا
فإن قلتَ : أمـواتٌ فلا أنت كاذِبٌ ... وإن قـلتَ : أحياءٌ فلستَ مفنّدا

كتابي عشيقي

قيل : إن هذه الأبيات كانت على باب خزانة الإمام أبي بكر القفـّال :

خـليلي كـتابي لا يَعاف وصاليا ... وإن قـلَّ لي مــالٌ وولّى جمــاليا
كتابي عشيق حين لم يبقَ مَعشقَ ... أغــازله لـو كــان يدري غزاليا
كتابي جليـسي ولا أخـاف ملاله ... محدّث صـدقٍ لا يخــاف ملاليا
كتابي بحرٌ لا يغيـض عطــاؤه ... يُفيض عليّ المال إن غـاض ماليا
كتابي دليلٌ لــي عـلى خير غايةٍ ... فمــن ثـمّ إدلالي ومنــه دلالـيا

مع العلماء والخواص

وقال الإمام المعافى بن زكريا النهرواني الجريري – نسبة إلى مذهب ابن جرير الطبري- في كتابه (الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي) : ((وقد كان بعض مَن كان له في الدنيا صيت ومكانة عاتبني على ملازمة المنزل وإغبابي زيارته وإقلالي ما عوّدته مِن الإلمام به وغشيان حضرته ، فقال لي : أما تستوحِش الوحدة ؟ ونحو هذا مِن المقالة . فقلت له : أنا في منزلي إذا خلوتُ مِن جليس يقصد مجالستي ويؤثر مساجلتي ، في أحسن أُنسٍ وأجملِه وأعلاه وأنبلِه ،لأنني أنظر في آثار الملائكة والأنبياء والأئمة والعلماء وخواص الأعلام الحكماء وإلى غيرهم مِن الخلفاء والوزراء والملوك والعظماء والفلاسفة والأدباء والكتّاب والبلغاء والرُّجّاز والشعراء ، وكأني مجالِسٌ لهم ، ومستأنسٌ بهم ، وغير ناءٍ عن محاضرتهم ، لوقوفي على أنبائهم ونظري فيما انتهى إليَّ مِن حِكمهم وآرائهم)) .



ما أجمله مِن معشوق !

رأينا مدى شغف جيل الريادة بهذا المعشوق وكيف عانوا ما عانوه في سبيله ، ولا يمكننا بحالٍ مِن الأحوال أن تجاوز أو نتحاشى ما ذكرناه استبعادًا له أو تهاونًا به فلولا ما قاساه أولئك الرجل العاشقون مِن حب شديد لهذا المعشوق لما وصل إلينا نتاجهم ، ولما تفيأنا ظلال مؤلفاتهم ، فليس في قصصهم مبالغة إذا ما علمنا أن حياتهم لم تكن إلا مِن أجله ، لأنهم اتخذوه مطية إلى رضوان الله .





الفصل الرابع
مع العشاق في رحلة العشق



هنا قصص جذاب ، وحديث غلاب ، عن حكايات القراء ، وعن حديث عشاق الكتاب ؛ عن ولـهـهم بالحرف ، عن تعلقهم بالأوراق ، عن صبابتهم بالدفتر ، كـل ذلك معـايشة طـويلة غرام جارف ، بهذا المعشوق ن الذي أثبت مِن خلال رحلة طويلة مِن عـمر الإنسـانية أنه أنفع صاحب ، وأوفى صديق ، وأنبل رفيق ، وللعشاق معه وقفات ، ولمحبين وإياه حكايات ..



بعد أن قدمنا في الفصل السابق وقـفـات للتـأمل في حال مَن عشقوا الكتب ، سنستعرض في هذا الفصل حكاياتهم في رحلة العشق ، وكيف قضوا حياتهم حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه ؟

مالك بن أنس

(93 – 179 هـ)

" ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح مِن كتاب مالك "
الإمام الشافعي

عُرف عن الإمام مالك أنـه كـان قوي الحافظـة ، وجيـد التحـرّي فـي روايـة الحديث ، مـدققًا فـي ذلـك كـل التدقيق ، لا ينقل إلا عن الأثبات ولا يغتر بمظهر الراوي أو هيأته .

وكان يقول : " لقد أدركت في هذا المسجد (مسجد المدينة النبوية) سبعين من يقول : قال فلان قال رسول الله ρ فما أخذت عنهم شيئًا ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينًا عليه ، إلا إنهم لـم يكونـوا مِـن أهل هذا الشأن " .

كما كان الإمام مالك يتتبع الآثار النبوية ويميل إلى الأخذ برأي أهل المدينة ويتجنب أصحاب الأهواء وأهل الفرق ويأبى كل الإباء أي انحراف عن الدين .

_ بداية طلب العلِم والأم هي المشجع



قال مطرف : قال مالك : قلت لأمي : أذهب فأكتب العلم ؟ فقالت : تعال فالبس ثياب العِلم ، فألبستني ثيابًا مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها ، ثم قالت : اذهب فاكتب الآن . وقال رحمه الله : كانت أمي تعممني وتقول لي : اذهب إلى ربيعة فتعلم مِن أدبه قبل علمه .
نِعم الأم ونِعم الولد ؛ هذه الأم التي تشجع الولد وتحثه وتبعث فيه الهمة على الطلب ، وتوضح له الوجهة الصحيحة ، وهي تحصيل الأدب قبل العلم ؛ لأن العلم بلا أدب لا نفع فيه ولا خير – أيضًا - ؛ فلابد مِن الأدب مع العلم .

_ ألمٌ وحِرصٌ واجتهاد

همة لا تعرف التوقف ولا الانتظار ، وإنما هو الجد والتشمير والصبر والمصابرة ؛ قال مالك : كان لي أخ في سن أبي شهاب ، فألقى أبي علينا يومًا مسألة فأصاب أخي وأخطأت ، فقال لي أبي : ألهتك الحمامُ عن طلب العلم ! . فمضيت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين ، وفي رواية ثمان سنين لم أختلط بغيره . هذه هي الغيرة الحقيقية على النفس ، وهذه هي الرجولة ، وهذه هي العظمة ، فتأمل كيف كانت الأمة وعلى ماذا كانت تغار وتغضب ، وكيف أصبحت الآن ؟!
قال مالك : كنت آتي ابن هرمز بكرةً فما أخرج مِن بيته حتى الليل . وقال مصعب : كان مالك يقود نافعًا مِن منزله إلى المسجد وكان قد كفّ بصره فيسأله فيحدثه ، وكان منزل نافع بناحية البقيع . قال مالك : كنت آتي نافعًا مولى ابن عمر فيحدثني وأنا يومئذٍ غلام ومعي غلام لي وينزل إلي مِن درجة له فيقعدني معه فيحدثني ، وقال : كنت آتي نافعًا نصف النهار وما تظلني الشجر مِن الشمس إلى خروجه ، فإذا خرج أدعه ساعة كأني لم أرده ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه ، حتى إذا دخل البلاط أقول له كيف قال ابن عمر في كذا وكذا ؟ فيجيبني ، ثم أحبس عنه وكان فيه حِدّة .



تأمل حرصه على الطلب في الليل والنهار حتى مع شدة حر الشمس وصبره على الشيوخ ومجاهدته للأخذ منهم وهكذا يحصّل العلم ؛ فالعلم لا يأتي إلا بصبرٍ وحُب وعشقٍ وحرٍ وقد قال أهل العلم سابقًا ولاحقًا : أعطِ العلم كلك يعطك بعضه .
واقرأ وتأمل معي هذه القصة العجيبة لهذا الإمام العلم :
رُوي عنه أنه قال : قدم علينا الزهري فأتيناه ومعنا ربيعة فحدثنا نيفًا وأربعين حديثًا ، ثم أتيناه في الغد فقال : انظروا كتابًا حتى أحدثكم منه أرأيتم ما حدثتكم أمس ، أفي شيء مِن أيديكم منه ؟ فقال له ربيعة : ها هنا مَن يرد عليك ما حدثت به أمس ، فقال ومَن هو ؟ قال : ابن أبي عامر ، قال هات .. فحدثته أربعين حديثًا منها ، فقال الزهري : ما كنت أرى باقيًا مَن يحفظ هذا غيري !!

_ لا يعرف العطلة في طلب العلم



لقد كان الإمام مالك حريصًا على طلب العلم ، حريصًا على استثمار الوقت في تحصيل المعرفة ، حتى وإن كان ذلك الوقت أيام راحة وعيد ، وقد روي عنه قوله : شهدت العيد فقلت هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت مِن المصلى حتى جلست على بابه ، فسمعته يقول لجاريته انظري مَن على الباب ، فنظرتْ فسمعتُـها تقول : مولاك الأشقر ، قال : أدخليه ، فدخلتُ

فقال : ما أراك انصرفت بعدُ إلى منزلك ؟ قلت : لا . قال : هل أكلتَ شيئًا ؟ قلت : لا ، قال : فاطعم ، قلت : لا حاجة لي فيه ، قال : فما تريد ؟ قلت : تحدثني سبعة عشر حديثًا ، ثم قال : وما ينفعك إن حدثتك ولا تحفظها ، قلت : إن شئت رددتها عليك ، فحدثني أربعين حديثًا ، فقلت : زدني ، قال : حسبك إن كنت رويتَ هذه الأحاديث فأنت مِن الحفاظ ، قلت : قد رويتها ! فجبذ الألواح مِن يدي ، ثم قال : حدّث ، فحدثته بها ، فردها إليّ وقال : قم فأنت مِن أوعية العلم ، أو قال : إنك لنعم المستودع .

وأما الحرص ، فاسمع إلى ما يقوله هذا الإمام العظيم : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ، عنده هذه الأساطين – وأشار إلى المسجد – فما أخذت عنهم شيئًا ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينًا ، إلا أنهم لم يكونوا مِن أهل هذا الشأن .

ثناء العلماء عليه

عُرف عن الإمام مالك احترامه للحديث وصاحب الحديث ρ حيث كان – رحمه الله – إذا أراد أن يحدّث توضأ وسرح لحيته وجلس متمكنًا في جلوسه على صدر فراشه في وقار وهيبة وحدّث ، فقيل له في ذلك ؟ ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ρ ولا أحدّث إلا على طهارة متمكنًا . وكان يكره أن يحدث في الطريق أو هو قائم أو يستعجل .



قال الإمام مالك : أحب أن أفهم ما أحدث به عن رسول الله ρ .

قال ابن هرمز له : أنت مِن أوعية العلم .

وقال سفيان بن عيينة : ما نحن عند مالك ؟

وقال – أيضًا - : مالك سيد أهل المدينة .

وقال حماد بن زيد عندما وصله نعي مالك : " لقد كان مالك مِن الدين " .

وقال الشافعي : " إذا جاءك الأثر عن مالك فشد به يدك " .

وقال أيضًا : " إذا جاءك الخبر فمالك النجم " .

وقال أيضًا : " إذا ذُكر العلماء فمالك النجم " .

وقال أيضًا : " مالك بن أنس معلمي ، وفي رواية أستاذي " .

وقال أيضًا : " لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز " .

وكان الإمام مالك جوادًا كريمًا سمح المحيا ، وكان مهيبًا نبيلاً محترم المجلس والجلساء ، حازمًا في الدفاع عن الحق ، يكره الجدال واللغط ورفع الصوت خاصةً في مجلس الحديث ، ومِن كلماته :



الدنو مِن الباطل هلكة ، والقول الباطل بُعد عن الحق ، ولا خير في شيء وإن كثر مِن الدنيا بفساد دين المرء ومروءته .

قدوة العلماء والأمراء

لم يرحل الإمام مالك في طلب الحديث مع أن الرحلة في ذلك الوقت كانت مِن السمات المميزة لرجال الحديث ، على أنه لم يخسر شيئًا بعدم الرحلة ، لكون المدينة المنورة كانت ملاذ العلماء ، ولم يخلُ محدث ممن رحلوا مِن المرور بها لزيارة مسجد رسول الله ρ ، وتلمس العلم مِن مظانه والحديث مِن مصدره ، فالتقى الإمام مالك أكثرهم واستفاد منهم .

وعن ابن المبارك قال : كنت عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله ρ فلدغته حشرة كالعقرب ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويتصبر ولا يقطع الحديث ، فلما فرغ مِن المجلس وتفرق الناس قلت له : لقد رأيت منك عجبًا ؟ فقال : نعم ، إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ρ .



يقول صاحب كتاب (مناقب الإمام مالك) :

هذا وشهد لهذا الأئمة العلم ، وتضافروا عليه بالنظر والتعظيم توافقوا فيه مِن كل مصر ، وما اشتهر به في كل عصر ، وأما رفعة قدره مع الخلفاء وعظم منزلته عند الأمراء ورجوعهم إلى رأيه دون غيره مِن الآراء وتقديمهم له على مَن سواه ونفوذ كلمته بين العامة ، وانقيادهم له بالطاعة ، وكمال سيادته عند الكافة ، فقد كان له المقام الأشرف والمحل الرفيع بحيث إنه لم يكن له في وقته مَن يساويه ولا مَن يقرب منه فيساميه ولا طمع فيه أحد فيباريه ، فكانت الخلفاء تقتدي بعلمه ، والأمراء تستضيء برأيه ، والعامة منقادة إلى قوله ، وكان يأمر فيمتثل أمره بغير سلطان ، ويقول فلا يسأل عن دليل قوله ، ولا يُطالب ببرهان ويأبى الجواب فلا يجترئ على مراجعته إنسان ، فلذلك قال فيه شاعرهم :

يأبى الجواب فما يراجـــع هيبةً   والمســـلمون نـــواكس الأذقان
أدب الوقار وعِز السلطان التقى   فهو المطاع وليس ذو السلطانِ

ـ لم يُـفتِ حتى سأل مَن هو أعلم



لم يكن – رحمه الله – مِن أولئك السابقين إلى الرد حول كل قاصية ودانية بعلمٍ وبلا علم ، ولكنه كان حريصًا على الورع وأخذ الحيطة والحذر ، قال – رحمه الله - : " ما أجبت في الفتوى حتى سألت مَن هو أعلم مني : هل تراني موضعًا لذلك ؟ سألت ربيعة وسألت يحيى بن سعد فأمراني بذلك " .

ـ رؤيا خير

قال خلف : دخلت عليه فقال لي : انظر ماذا ترى تحت مصلاي أو حصير ، فنظرت فإذا أنا بكتاب فقال : اقرأه فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه يقول : رأيت النبي ρ في المنام في مسجد قد اجتمع الناس عليه فقال لهم : إني قد خبأت تحت منبري طيبًا أو علمًا وأمرت مالكًا أن يفرقه على الناس، فانصرف الناس وهُم يقولون : إذًا ينفـّـذ مالك ما أمره به رسول الله ρ ثم بكى .

ـ أصول مذهب مالك

لم يدون الإمام مالك أصول مذهبه وقواعده في الاستنباط ومناهجه في الاجتهاد ، وإن كان قد صرّح بالبعض منه وأشار إلى البعض الآخر ، ومما صرح به في كتابه (الموطأ) أنه يأخذ بعمل أهل المدينة ويقدمه على خبر الأحاد المعارض له ، وحجته في ذلك أنّ عمل أهل المدينة متوارث عن آبائهم وأجدادهم فهو بمثابة السنة المتواترة وما كان هذا شأنه يقدم على خبر الآحاد ، وقد نازعه في هذا المسلك المجتهدون الآخرون كالشافعي والإمام محمد بن حسن . وجماع أصول مذهب مالك – بناءً على ما صرح به وأشار إليه – استنبطه فقهاء المذهب مِن الفروع المنقولة عنه والآراء المدونة في موطّنه ، كما صرح بها الإمام القرافي المالكي : (الكتاب – السنة – الإجماع – إجماع أهل المدينة – القياس – قول الصحابي – المصلحة المرسلة – العرف – العادات – سد الذرائع – الاستحسان – الاستصحاب) .



ومِن هذه الأصول يتبين لنا خصوبة المذهب وسعته ، وإمكان تخريج الأحكام عن أصوله الملائمة لكل عصر ومكان ، لاسيما على أصل المصلحة المرسلة الذي سيطر على جميع فقه مالك في كل المسائل التي لا نص فيها ، حتى قُرن اسم المصالح المرسلة بمذهب مالك .



ـ تدوين فقه مالك ونقله

دُوّن فقه ملك ونُقل عنه بطريقتين :

الأولى : كُتب ألـّفها مالك نفسه وأهمها الموطأ .
الثانية : بواسطة تلامذته فقد نشروا ودون بعضهم آراءه وأقواله في (المدونة) .

الموطأ

وهو أجلّ ما كتبه مالك جمع فيه ما صح عنده مِن أحاديث رسول الله ρ المتصلة والمرسلة وفتاوى الصحابة وأقضيتهم وأقوال التابعين ، كما ذكر آراءه في بعض المسائل قياسًا على الآثار التي رواها أو توجيهًا وتفسيرًا لما رواه أو ترجيحًا لبعض ما رواه على البعض الآخر .
وقد ظل يعمل فيه تأليفًا وتهذيبًا وتنقيحًا مدة أربعين سنة ؛ جعله على أبواب الفقه ، وقد تلقته الأمة بالقبول في زمانه وبعد زمانه ورواه عن الجمع الغفير ، وشرحه أكثر مِن واحد . وأراد الرشيد ، وقبله أبو جعفر المنصور ، حمل الأمة على اتباعه فأبى مالك .



المدونة

وأما المدونة فالأساس في تدوينها أن أسد بن الفرات سمع مِن مالك كتابه الموطأ ثم ذهب إلى العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة وسمع منهما ، فأراد أن يعرف رأي مالك في المسائل التي دونها الإمام محمد إلا أن مالكًا توفي فرجع إلى مصر والتقى بعبد الله بن وهب – تلميذ مالك – وعرض عليه الفكرة فتهيب وأحجم ، فقصد عبد الرحمن بن القاسم فأجابه إلى طلبه ، وأخبره في كل مسألة فقهية برأي مالك ، وإن شك في حفظه عنه قال أخال وأحسب وأظن ، وإن لم يجد لمالك قولاً في مسألة قال هو برأيه فيها ، إما بالقياس على ما قاله مالك في نظائر تلك المسألة ، وإما بمحض اجتهاده في ضوء أصول المذهب المالكي إن لم يجد قولاً لمالك في نظير المسألة المسؤول عنها ، وجمع أسد أجوبة ابن القاسم في كتب سماها (الأسدية) ثم رحل بها إلى القيروان بعد أن ترك نسخة منها بمصر . وفي القيروان تلقاها عنه سحنون وهو عبد السلام بن سعيد التنوخي وقد سمع مِن ابن القاسم وابن وهب وأشهب فارتحل بها إلى ابن القاسم وعرضها عليه ؛ فنقحها ابن القاسم وأسقط منها ما كان ظنًا وما كان يشك فيه أدنى شك في نسبته إلى مالك ، وما لم يجد فيه نصًا يثق فيه قال برأيه واجتهاده على ضوء أصول مالك ، أو على قياس قول مالك في مثيله ، فدوّن سحنون ما سمعه مِن ابن القاسم ورجع بها إلى القيروان ، فأقبل الناس على ما كتبه سحنون وسُمي ما كتبه (المدونة) ثم رتبها وهذبها وزاد عليها ما اختلف فيه مالك مع كبار أصحابه وذيل أبوابها بالحديث والآثار فكانت هذه المدونة تجمع آراء مالك وأقواله كما سمعها منه تلميذه ابن القاسم ؛ كما تجمع الأقوال المخرجة على أصوله وآراء أصحابه التي خالفوا فيها شيخهم ؛ مع الآثار والأحاديث الواردة في مسائل الفقه ، ثم جاء العلماء وشرحوها ولخصوها وعلقوا عليها .



سفيان الثوري

(97 – 161هـ)

" كان الثوري عندنا إمام الناس ؛ وسفيان في زمانه كأبي بكر وعمر ي زمانهما " .
بِشر الحافي

لقد كان العصر الذي نشأ فيه سفيان الثوري زاخرًا بالعلوم وخاصةً الشرعية منها ، حيث كان الخلفاء يشجعون على ذلك ، ويأخذون بيد العلماء وطلبة العلم ، بل ربما بذلوا الجهد في التقرب إليهم وطلب الرضا منهم .



فهذا العصر برع فيه العلماء ؛ وانتشروا بين الأمصار يعلمون الناس وينشرون ما عندهم مِن علم ودين ، فكان لهذا أبلغ الأثر في كثرة العلماء وطلاب العلم .

والإمام أبو عد الله سفيان الثوري هو أحد أئمة الحديث وأعلامه البارزين المشهود لهم بالحفظ والإتقان في ذلك العصر .

حدّث سفيان بن عيينة قال : جاع سفيان الثوري جوعًا شديدًا ومكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئًا فمرّ بدار فيها عرس فدعته نفسه إلى أن يدخل فعصمه الله ومضى إلى منزل أخته ، فأتته بقرص فأكل وشرب ماء ، فتجشأ ثم قال :

سيكفيك عما أغلق الباب دونه — وضف به الأقوام ملحٌ وجردقُ
وتشرب مِن ماءٍ فرات وتغتدي — تعارض أصحاب الثريد الملبقُ
تجشأ إذا ما هُم تجشوا كأنما — ظللت بأنواع الخبيص تفتقُ

_ صبر وأيُّ صبر ؟!

قال أبو شهاب الحناط : ((بعثت أخت سفيان الثوري معي بجراب إلى سفيان وهو بمكة في (كعك وخَشْكُنان [خبز يُصنع مِن دقيق الحنطة مملوء بالسكر واللوز] فقدمت مكة فسألت عن سفيان فقيل لي : إنه ربما يقعد دبر الكعبة مما يلي باب الحناطين قال أبو شهاب : فأتيته هناك - وكان لي صديقًا – فوجدته مستلقيًا فسلمت عليه ، فلم يسائلني تلك المساءلة ولم يسلم عليّ كما كنت أعرف منه ، فقلت له : إن أختك بعثت إليك معي بجراب فيه كعك وخشكنان قال : فعجل به عليّ واستوى جالسًا ، فقلت له : يا أبا عبد الله آتيك وأنا صديقك فسلمت عليك فلم تردّ عليّ ذلك الرد ، فلما أخبرتك أني أتيتك بجراب كعك لا يساوي شيئًا جلست وكلمتني ؟ فقال : يا أبا شهاب لا تلمني فإن لي ثلاثة أيام لم أذق فيها ذواقًا ! ، قال أبو شهاب : فعذرته .



_ شيوخ كثر وتلامذة أكثر

اشتهر عن سفيان الثوري أنه كان رحّالة لا ينقطع في طلب العلم ، ولا يسمع بشيخ في أطراف الأرض إلا ورحل إليه .



قال الذهبي : يقال أن عدد شيوخ سفيان ستمائة شيخ ، وأما الرواة عنه فخلق كثير ؛ ذكر أبو الفرج ابن الجوزي أنهم أكثر مِن عشرين ألفًا وهذا مدفوع ممنوع فإن بلغوا ألفًا فبالجهد ! .

_ حفظ مذهل وذاكرة فولاذية

قال الأشجعي : سمعت مِن الثوري ثلاثين ألف حديث . وكلها يسردها عن ظهر قلب دون خلط في الأسانيد أو لخبطة بين الرواة .

وإليك قِصة عن حفظ سفيان المذهل :

عن مهران الرازي قال : كتبت عن سفيان الثوري إضافة ، فضاع مني كتاب الرايات فذكرت ذلك له فقال : إذا وجدتني خاليًا فاذكر لي حتى أملِه عليك ، فحج فلما دخل مكة طاف بالبيت وسعى ثم اضطجع ، فذكّرته فجعل يملي عليّ الكتاب بابًا في إثر باب حتى أملاه جميعه مِن حِفظه .

مكانته العلمية

لقد حظي سفيان الثوري بشهادات أهل عصره وزمانه .
قال ابن المبارك : ما أعلم على وجه الأرض أعلم مِن سفيان . وقال ابن حنبل الروذي : أتدري مَن الإمام ؟ الإمام سفيان الثوري لا يتقدمه أحد في قلبي .
وقال شعيب بن حرب : إني أحسب أنه يُجاء غدًا بسفيان حجة مِن الله على خلقه ، يقول لهم : لم تدركون نبيكم قد رأيتم سفيان .



وقال بِشر الحافي : كان الثوري عندنا إمام الناس ، بل قال عنه : سفيان الثوري في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما .
وقال شعبة : سفيان أمير المؤمنين في الحديث ، مجمع على إمامته مع الإتقان والضبط والحفظ والمعرفة والزهد والورع .
وقال الوليد بن مسلم : رأيته بمكة يُستفتى ولما يخط وجهه بعد .

علم واتباع

قال عبد الرحمن بن مهدي : ((الناس على وجوه فمنهم مَن هو إمام في السنة إمام في الحديث ، ومنهم مَن هو إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ومنهم مَن هو إمام في السنة وإمام في الحديث فسفيان الثوري)) .
لقد تبوأ سفيان مكانة عالية في الفقه حتى أصبح أحد الأئمة المتبوعين ممن يرجع إليهم في الفقه والفتيا .
وكان رحمه الله آية في تفسير القرآن ، وقد استشهد بأقواله أئمة التفسير حتى لو تتبع أحدٌ أقواله في التفسير لأخرج مجلدًا كاملاً ، قال عبد الرزاق : سمعت سفيان يقول : سلوني عن القرآن فإني به عالم وسلوني عن المناسك فإني بها عالم .
وكان لا يحب الشهرة ويخاف منها على نفسه وهرب ما استطاع ؛ فعن سفيان بن عيينة قال : قال سفيان الثوري : كنت إذا رأيت الرجال يجتمعون إلى أحد غبطته ، فلما ابتليت بها ؛ وددت أني نجوت منهم كفافًا لا عليّ ولا لي .
وعن خلف بن تميم قال : سمعت سفيان الثوري يقول : لولا أن أستذل لسكنت بين قوم لا يعرفونني .
وعن أحمد بن يونس قال : سمعت سفيان يقول : ما رأيت للإنسان شيئًا خيرًا مِن أن يدخل في جحر ، قال ابن يونس : اليوم ينبغي أن يدخل في قبر .
قال الثوري رحمه الله : العلماءُ إذا عَلِموا عَمِلوا ، فإذا عَمِلوا شُغِلوا ، فإذا شُغِلوا فُقِدوا ، فإذا فُقِدوا طُلِبوا ، فإذا طُلِبوا هَربوا .



الشافعي

(150 – 204هـ)

" ما أحد مس محبرة ولا قلمًا إلا وللشافعي في عنقه منه "
أحمد بن حنبل

وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي . وكان أبوه قد هاجر مِن مكة إلى غزة بفلسطين بحثًا عن الرزق ، لكنه مات بعد ولادة محمد بمدة قصيرة ، فنشأ محمد يتيمًا فقيرًا . وشافع السائب يوم بدر في جملة مَن أُسر وفدى نفسه ثم أسلم . ويلتقي نسبه مع رسول الله ρ في عبد مناف .

_ الأم هي البداية



يقول الشافعي عن نفسه : " ولدت باليمن فخافت أمي عليّ الضيعة وقالت : الحق بأهلنا فتكون منهم ، فإني أخاف عليك أن تغلب على نسبك ، فجهزتني إلى مكة فقدمتها يومئذ وأنا ابن عشر سنين فصرت إلى نسيب لي وجعلت أطلب العلم فيقول لي : لا تشتغل بهذا وأقبل على ما ينفعك ، فجعلت لذتي في طلب العلم ، وفي رواية ولدت بغزة " .
فنعم الأم أم الشافعي ونِعم الفتى الشافعي ، منذ نعومة أظفاره والعلم محبب إليه وقد قال عن نفسه : " لم يكن لي مالٌ وكنت أطلب العلم في الحداثة وكنت أكتب ي العظام " ، بل كان العلم عنده هو اللذة والفهم والرغبة القصوى ؛ قال - رحمه الله - : " كانت نهمتي في الرمي وطلب العلم ، فنلت مِن الرمي حتى كنت أصيب مِن عشرةٍ عشرةً " ، هذا الرمي فكيف بالعلم ؟! .

_ العلوم التي نبغ فيها

نبغ الإمام الشافعي في عدد مِن العلوم المختلفة كالفقه ، والتفسير ، والشِعر ، واللغة ، وعلم الأنساب ، وكإشارات سريعة على نبوغه في هذه العلوم نستخلص ما يلي :

1- الفقه : وهو إمام فيه بشهادة القريب والبعيد ويكفي أن شيخه هو مفتي مكة (مسلم بن خالد الزنجي) ، ونظرًا لقوته وتمكنه في هذا اعلم أُذِن له بالفتوى وعمره خمس عشرة سنة ؛ قال الحميدي : سمعت مسلم ابن خالد الزنجي يقول للشافعي : افتِ يا أبا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتي ، وهو ابن خمس عشرة سنة .
2- التفسير : فقد كان ابن عيينة إذا جاءه شيء مِن التفسير والفتيا التفت إلى الشافعي فيقول : سلوا هذا . وقال يونس بن عبد الأعلى : كان الشافعي إذا أخذ مِن التفسير كأنه شهد التنزيل .
3- الشعر واللغة : قال ثعلب (الإمام في اللغة) : الشافعي إمام في اللغة . وقال المبرد : كان الشافعي مِن أشعر الناس وآدب الناس .
4- أيام العرب وأنسابهم :قال عنه يونس الصدفي : كان الشافعي إذا أخذ في أيام العرب قلت هذه صناعته . وقال مصعب بن عبد الله : ما رأيت أحدًا أعلم بأيام الناس مِن الشافعي .



أما الأنساب : فهذه قصة تكفي دلالةً على سعة علمه واطلاعه في هذا الجانب : فقد اجتمع معه نفر فذاكرهم بأنساب النساء إلى الصباح ، وقال : أنساب الرجال يعرفها كل أحد . وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول : " الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء في اللغة واختلاف الناس ، والمعاني ، والفقه "

5- أصول الفقه : وهو أبو هذا العلم والمؤسس له ؛ قال صاحب المراقي : أول مَن ألفه في الكتب : محمد بن شافع المطلب ، وقد كان منثورًا قبله ، فنال شرف التدوين لهذا العلم فألف كتابه (الرسالة) . ورحم الله الإمام أحمد حيث يقول : " ما أحدٌ مسّ محبرة ولا قلمًا إلا وللشافعي في عنقه منه " .



_ الحرص والحُب والألم في عشق العلم

فالحرص على الطلب ظهر منذ الصغر ، ويتضح ذلك مِن قولـه : وكنت أطلب العلم في الحداثة . كما يتضح الحرص في أخذ دقيق العلم : قال – رحمه الله - : " مَن تعلم علمًا فليدقق لئلا يضيع دقيق العلم "
وأما الحُب : فاسمع مِن شعره وهو يقول :

وما أنا بالغيران مِن دون أهله إذا أنا لم أصبح غيورًا على علمي
طبيب فؤادي مذ ثلاثين حجـة وصيقل ذهني والمفرج عن همـي

وقال المزني : قيل لمحمد بن إدريس الشافعي : كيف شهوتك للعلم ؟ قال : أسمع بـالحرف ممـا لم أسمعه فتود أعضـائي أن لها أسماعًا تنعم لها مثل مـا تنعمت الأذنـان ! ، قيل : وكيف حرصك عليه ؟ قال : حرص الجموح الممنوع على بلوغ لذاته في المال . قيل : وكيف طلبك لـه ؟ قال : طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره .
وأما الألم فاسمعه وهو يقول : " بقيت ست عشرة سنة ما كان طعامي إلا رغيفين وتمرًا آكل منه بقدر ما يقوم به جسدي ، فقيل له : ما الذي أردت به يا أبا عبد الله ؟ قال : أردت الحفظ للعلم والفقه ؛ تركتـه لذلك فرزقني الله بعد ذلك " . ويقول أيضًا : " يا أبا موسى لقد أفلست ثلاث مرات ، وقد رأيتنـي آكل السمك بالتمر لا أجد غيرهما " .

_ مِن مشكاة الشافعي
يقول – رحمه الله - : " كفى بالعلم فضيلة أنه يدعيـه مَن ليس فيـه ويفرح إذا نُسب إليـه ، وكفـى بالجهل شرًا أن يتبرأ منه هو فيه ويغضب إذا نسب إليه " .



يحيى بن معين
(158 – 233هـ)

" كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث " .
أحمد بن حنبل

هو الإمام الحافظ الجهبذ ، شيخ المحدثين ، أبو زكريا ن يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام . وقيل : اسم جده غياث بن زياد بن عون بن بسطام الغطفاني ثم المري ، مولاهم البغدادي ، أحد الأعلام المشهورين .

ليذهب المال مِن أجمل العلم



كان (معين) على خراج الري ، فخلّف ليحيى ابنه ألف ألف درهم ، فأنفقتها كلها على الحديث حتى لم يبقَ له نعل يلبسه ! .
إن المال حبيب إلى النفوس ؛ كما قال المولى عز وجل { وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } ولا يتركه الإنسان إلا إلى أحب منه ؛ ولهذا كان العلم عند يحيى أحب مِن المال الذي أنفقه كله في سبيل العلم .

كتب بيده ستمائة ألف حديث !

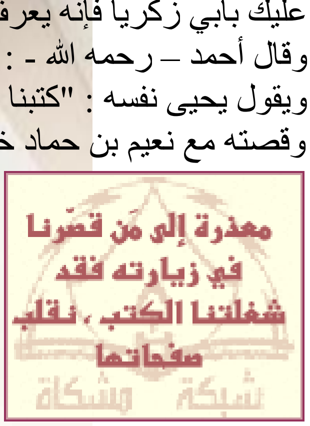
قال علي بن المديني : " ما أعلم أحدًا كتب ما كتب يحيى بن معين " ، وقال أيضًا : " لا أعلم أحدًا مِن لدن آدم كتب مِن الحديث ما كتب يحيى " . وهذا يدل على شدة التحصيل عند يحيى بن معين ؛ ولهذا نجد التحصيل الشديد والحصيلة الوافية عندما سُئل يحيى بن معين : كم كتبت مِن الحديث ، فقال : كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث ! وخلّف يحيى مِن الكتب مائة وأربعة عشر قمطرًا ، وأربعة جباب شرائية .

التحري والدقة في الأخذ والرواية

كان الإمام يحيى بن معين ذا حرص ودقة في الأخذ والرواية ؛ وكان دقيقًا أيضًا في تثبيت المعلومة ، ولهذا كان – رحمه الله – يقول : " لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه " .
وقال – رحمه الله - : " إني لأحدث بالحديث فأسهر له مخافة أن أكون قد أخطأت فيه " . وقال مجاهد بن موسى : " كان يحيى بن معين يكتب الحديث نيفًا وخمسين مرة " . وقال – رحمه الله - : " أشتهي أن أقع على شيخ ثقة ، عنده بيت مليء بكتب أكتب عنه وحدي " .

إمام الجرح والتعديل

أتى رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل وقال له : يا أبا عبد الله انظر في هذه الأحاديث فإن فيها خطأ ، قال : عليك بأبي زكريا فإنه يعرف الخطأ .
وقال أحمد – رحمه الله - : ها هنا رجل خلّقه الله لهذا الشأن ، يظهر كذب الكذابين ، يعني (ابن معين) .
ويقول يحيى نفسه : "كتبنا عن الكذابين ، وسجّرنا به التنور ، وأخرجنا به خبزًا نضيجًا " .
وقصته مع نعيم بن حماد خير شاهد على دقته وحفظه ، وأنه إمام في الجرح والتعديل : ((قال يحيى بن معين : حضرت نعيم بن حماد بمصر فجعل يقرأ كتابًا صنفه فقال : حدثنا ابن المبارك عن ابن عون وذكر أحاديث ، فقلت : ليس ذا عن ابن المبارك ، فغضب وقال : تردُّ عليّ ؟ قلت أي والله ، فأبى أن يرجع فلما رأيته لا يرجع قلت : لا والله ما سمعت هذه مِن ابن المبارك ، ولا سمعها هو من ابن عون قط ، فغضب وغضب مَن كان عنده ، وقام فدخل فأخرج صحائف فجعل يقول : - وهي بيده – أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمير المؤمنين في الحديث ؟ نعم يا أبا زكريا غلطتُ وإنما روى هذه الأحاديث غير ابن المبارك عن ابن عون)) .



ثناء أهل العلم عليه



قال أبو حاتم الرازي : إذا رأيت البغدادي يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة ، وإذا رأيته يبغض يحيى بن معين فاعلم أنه كذاب . وقال علي بن المديني : انتهى العلم إلى يحيى بن آدم ، وبعده إلى يحيى بن معين . وقال الإمام أحمد بن حنبل : السماع مِن يحيى بن معين شفاء لما في الصدور . وقال الإمام أحمد : كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث .

وقال الخطيب : كان إمامًا ربانيًا عالمًا حافظًا ثبتًا متقنًا . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : ((انتهى الحديث إلى أربعة : أحمد بن حنبل وهو أفقههم فيه ، وإلى يحيى بن معين وهو أكتبهم له ، وإلى علي بن المديني وهو أعلمهم به ، وإلى أبي بكر بن أبي شيبة وهو أحفظهم له – وفي رواية - : وإلى ابن معين ، وهو أعلمهم بصحيحه وسقيمه)) .

_ لكل بداية نهاية

مات – رحمه الله – بالمدينة ، فأخرجوا له الأعواد التي غُسّل عليها رسول الله ρ وحُمل على سرير النبي ρ ورحل يُنادى بين يديه هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله ρ . قال حبش بن مبشر الفقيه – وهو ثقة - : رأيت يحيى بن معين في النوم ، فقلت له ما فعل الله بك ؟ قال أدخلني عليه في داره وزوجني ثلاثمائة حوراء ، ثم قال للملائكة انظروا إلى عبدي كيف تطرى وحسن . رحمة الله على أبي زكريا ، وجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين .



أحمد بن حنبل

(164 – 241هـ)

" خرجت مِن بغداد فما خلّفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه مِن ابن حنبل " .
الشافعي

بداية محرقة



لقد كان النبوغ والتفوق ظاهرًا على الإمام أحمد منذ الصغر , فقد كان في الكتَاب (أماكن يتعلم فيها الصغار الكتابة) متفوقا على أقرانه ؛ يقول صاحب المنهج الأحمد : " وكان في الكتاب وهو غلام يعرف فضله , وكان الخليفة بالرقة فيكتب الناس إلى منازلهم الكتب فتبعث نساؤهم إلى المعلم : ابعث لنا بأحمد بن حنبل فيبعثه ليكتب لهم جواب كتبهم , فيبعثه , فكان يجيء إليهم مطأطئ الرأس , فيكتب لهم جواب كتبهم فربما أملوا عليهم الشيء من المنكر فلا يكتبه لهم ...
فنبوغه ظاهر , وكذلك ورعه , وكان لا يجامل أحداً ؛ "فيكتب له المنكر " , وكأن الله يعده إعدادًا لأمر الفتنة والمحنة !.

طلب الحديث في سن المراهقة

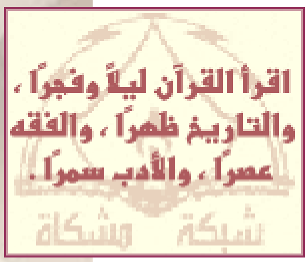
كثير من أسر المسلمين اليوم تشكو من الأبناء عندما يصل الواحد منهم إلى سن المراهقة , وربما جلب لهم الكثير من المشاكل , ولكن الوضع مع الإمام أحمد كان غير ذلك تمامًا, فقد كان انطلاقه إلى العلم في هذا السن ؛ قال صاحب المنهج الأحمد : " طلب الحديث وهو ابن ست عشر سنة ".

حفظ وفهم ورحلة

كان من الأسباب التي أهلت الأمام أحمد إلى هذه المرتبة أمران :

الأول :الحفظ

فعن أبي محمد بن أبي حاتم قال : قال يوماً سعيد بن عمرو البردعي لأبي زرعة يا أبا زرعة : أنت أحفظ أم أحمد بن حنبل ؟ قال بل أحمد ابن حنبل , قال وكيف علمت ذلك ؟ قال وجدت كتب أحمد بن حنبل ليس بها في أوائل الأجزاء ترجمة أسماء المحدثين الذين سمع منهم , فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه وأنا لا أقدر على هذا .



وقال أبو جعفر التبري : قيل لأبي زرعة : مَن رأيت مِن المشايخ المحدثين أحفظ ؟ فقال أحمد بن حنبل ؛ حزرت (أحصيت) كتبه في اليوم الذي مات فيه فبلغ اثني عشر حملاً وعدلاً وكل ذلك يحفظه عن ظهر قلب .
وقال عبد الوهاب الوراق : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، فقالوا له : وأي شيء بان لك مِن فضله وعلمه ؟ قال : رجل سئل ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال : حدثنا وأخبرنا .

الثاني : الفهم

فعن أحمد بن سعيد قال : ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله ، أو لا أعلم بفقهه ومعانيه مِن أبي عبد الله أحمد بن حنبل .
وعن إبراهيم الحربي قال : رأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله تعالى جمع له علم الأولين والآخرين مِن كل صنف .
وعن محمد بن يونس قال : سمعت أبا عاصم – وذكر الفقه – فقال : ليس ثـَمَّ ؛ يعني ببغداد إلا ذلك الرجل – يعني أحمد بن حنبل - ، ما جاءنا مَن ثـَمَّ أحد غير يحسن الفقه . وقال عبد الوهاب الوراق : أبو عبد الله أحمد إمامنا وهو مِن الراسخين في العلم ؛ فإذا وقفت غدًا بين يدي الله عز وجل وسئلت بمن أقتدي ، أقول بأحمد بن حنبل .

الثالث : الرحلة

كسائر أترابه تعلم القرآن في صغره وتلاه تلاوة جيدة وحفظه عن ظهر قلب ، وعندما تجاوز الخامسة عشرة مِن عمره ، بدأ يطلب العلم ، وأول مَن طلب العلم عليه هو الإمام أبو يوسف القاضي . والإمام



أبو يوسف كما هو معلوم مَن أئمة الرأي مع كونه محدّثًا ، ولكن في البداية وبعد مرور فترة لأحمد مع أبي يوسف وجد الإمام أحمد أنه يرتاح لطلب الحديث أكثر ، فتحول إلى مجالس الحديث وأعجبه هذا النهج واتفق مع صلاحه وورعه وتقواه ، وأخذ يجول ويرحل في سبيل الحديث حتى ذهب إلى الشام والسواحل والمغرب والجزائر ومكة والمدينة والحجاز واليمن والعراق وفارس وخرسان والجبال والأطراف والثغور ، وهذا فقط في مرحلته الأولى مِن حياته . ولقد التقى الشافعيّ في أول رحلة مِن رحلاته الحجازية في الحرم ، وأعجِب به . وكان يقول عندما يروي حديث رسول الله ρ : إن الله يبعث على رأس كل أمّة مِن يجدد لهذه الأمة أمر دينها . وكان يقول : لقد أرسل الله تعالى سيدنا عمر بن عبد العزيز يجدد لهذه الأمة دينها على رأس المئة الثانية وآمل أن يكون الشافعي على رأس المئة الثالثة .

وقد حيل بين أحمد ومالك بن أنس فلم يوفـّق للقائه وكان يقول : لقد حُرمت لقاء مالك فعوّضني الله عز وجل عنه سفيان بن عيينة . وكان الشافعي يكثر مِن زيارة الإمام أحمد ، فلما سئل عن ذلك أنشد قائلاً :

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تبارح منزله
إن زارني فبفضله أو زرته فلفضله فالفضل في الحالين له

قال أحمد : " رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور والشامات والسواحل والمغرب والجزائر ومكة والمدينة والحجاز واليمن والعراقين جميعاً وفارس وخراسان والجبال والأطراف ثم عدت إلى بغداد " .
ويقول عنه ابن الجوزي – رحمه الله – " طاف أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع المسند ".

_ نية لا تعرف الرجوع

من العوامل التي ساعدت هذا الإمام العظيم في طلبه العلم علو همته وعدم تردده في عزم يعزم عليه , وهاكم الدليل على صدق المقال " خرج الإمام أحمد إلى عبد الرزاق بصنعاء سنة سبع وتسعين ومائة ورافق يحيى بن معين قال يحيى : لما خرجنا إلى اليمن حججنا فبينا أنا بالطواف إذا بعبد الرزاق فسلمت عليه وقلت له : هذا أخوك أحمد بن حنبل فقال حيَّاه الله وثبته فإنه بلغني عنه كل جميل فقلت لأحمد : قد قرب الله خطانا ووفَّر علينا النفقة وأراحنا من مسيرة شهر فقال , أحمد بن حنبل : إني نويت من بغداد أن أسمع من عبد الرزاق بصنعاء والله لا غيرتُ نيتي "

وهذه قصة أخرى تدل على حب العلم والحرص عليه في حياة هذا الإمام الجليل قال صالح بن أحمد بن حنبل : رأى رجل مع أبي محبرة فقال له : يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين فقال : مع المحبرة إلى المقبرة ! .. وقال رحمه الله : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل المقبرة .



تلك المواقف والقصص تحمل دلالات كثيرة على مدى عشق الإمام أحمد للعلم وحبه له وحرصه عليه وحتى لا نغبط الإمام حقه من تلك المشقة فعلينا أن نتخيل وعورة الأراضي في ذلك الزمان , وانعدام التنقل إلا على الدواب , وما تحتويه الأرض من سباع وهوام , ولكنها النفس الأبية عندما تبحث عن سمو الروح .

_ علوم نبغ فيها وأخلاق هدي إليها

لقد عاش الإمام أحمد بن حنبل متنقلاً بين عددٍ من المعارف والفنون , فما ترك فناً من الفنون الإسلامية ولا باباً إلا ولجه باقتدار وثقة , ومن تلك العلوم التي خاض غمارها ما يلي:

(1) الحديث :

فهذا فنه وهذا علمه الأول ويسبب الاشتغال به أخّر الزواج فما تزوج إلا بعد الأربعين قال – رحمه الله - : " ما تزوجت إلا بعد الأربعين " .

وأما ضبطه للحديث فإنه آية من آيات الله تعالى ؛ قال – رحمه الله - : " نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة وجوه لم نضبطه ؛ فكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد ؟ " .

وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبو زرعة : أبوك يحفظ ألف ألف حديث , فقيل له : وما يدريك ؟ فقال : ذاكرته فأخذت عليه الأبواب .

قال الذهبي : فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله وكانوا يعدون ذلك في المكرر والأثر وفتوى التابعي , وما فُسر ونحو ذلك و إلا فالمتون المرفوعة لا تبالغ عُشر معاشر ذلك .

وعن أبي زرعة قال : حزرت كتب أحمد يوم مات فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً ما كان على ظهر كتاب منها : (حديث فلان) ولا في بطنه (حدثنا فلان) كل ذلك كان يحفظه

(2) الفقه :

لقد حظي الإمام ابن حنبل بشهادات واعترافات مشايخه وجيل عصره مِن المحدثين والفقهاء ، وكلهم أجمع على فضله وقدره ، ومِن ذلك ما ذكره عبد الرزاق حين قال : " ما رأيت أحدًا أفقه ولا أورع مِن أحمد بن حنبل " ، وقال الذهبي معلقًا : " وقد رأى مثل الثوري ومالك وابن جريج " .

وقال عنه شيخه الشافعي : " خرجت مِن بغداد فما خلفت رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى مِن أحمد بن حنبل " .

(3) الزهد :

لقد كان أبرز ما يميز الإمام أحمد زهده وابتعاده عن مفاتن الدنيا ، حتى قال عنه الشافعي τ : " أحمد بن حنبل إمام في ثماني خصال : إمام في الحديث ، إمام في الفقه ، إمام في اللغة ، وإمام في القرآن ، وإمام في الحديث ، وإمام في الزهد ، وإمام في الورع ، وإمام في السنة " .

سئل الإمام أحمد عن الفتوى ، فقال : ترك ما تهوى لما تخشى . وقال : كل شيء مِن الخير تهتم به فبادر به قبل أن يحال بينك وبينه .

وقال : عزيز عليّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن . وقال : ما قلَّ مِن الدنيا كان أقلَّ للحساب . ورأى رجلاً يكتب بخط دقيق فقال له : لا تفعل أحوج ما تكون إليه يخونك .

_ بركة العلم في العمل

ومِن المميزات لهذا الجبل الأشم حرصه على الاتباع والعمل بالذي يعلم ؛ وهنا تظهر بركة العلم ؛ فقد اختفى أحمد – أيام المحنة – عند إبراهيم بن هانئ ، قال إبراهيم : اختفى عندي أحمد ثلاثة أيام ، ثم قال : اطلب لي موضعًا حتى أتحول إليه ، قلت لا آمن عليك يا أبا عبد الله ، فقال : افعل فإذا فعلت أخبرتك ، فطلبت له موضعًا فلما خرج قال لي : اختفى رسول الله ثلاثة أيام ثم تحول ، وليس ينبغي أن يتبع رسول الله في الرخاء ويُترك في الشدة .

_ آلام في سبيل العلم

ومَن المعلوم أن حال الدنيا متقلبة ، فليس لها على حال ثابت ، وفيها المحن

، ولا بد فيها مِن الآلام ، وقد قاسى الإمام أحمد آلامًا عند طلبه للعلم ؛ ومِن هذه الآلام ما ذكره أبو إسحاق الجوزجاني : " كان أحمد بن حنبل يصلي بعبد الرزاق فسها ، فسألنا عنه عبد الرزاق فأخبر أنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئًا " .



وذكر عبد الرزاق أحمد بن حنبل فدمعت عيناه ، ثم قال : قدم علينا فأقام ها هنا سنتين إلا شيئًا ، وبلغني أن نفقته نفدت ، فأخذت بيده فأقمته خلف الباب وأشار إلى بابه وما معي ومعه أحد فقلت : " إنه لا يجتمع عندنا الدنانير وإذا بعنا الغلة شغلناها في شيء ، وقد وجدت عند النساء عشرة دنانير فخذها ؛ فأرجو أن لا تنفقها حتى يتهيأ عندنا شيء ، فقال أحمد : يا أبا بكر لو قبلت شيئًا مِن الناس قبلت منك " .
وقال إسحاق بن راهوية : " لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة فأكرى نفسه مِن بعض الجمالين إلى أن وافى صنعاء ، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل مِن أحد شيئًا " .

_ ثناء عطِر

لقد حظي الإمام أحمد في حياته بثناء كل مِن عاصره مِن مشايخه وتلامذته ، فقد قال عنه الشافعي τ : " ما رأيت أعقل مِن أحمد بن حنبل " .
وقال عبد الرزاق : " رحل إلينا مِن العراق أربعة مِن رؤساء الحديث .. الشاذوكي ؛ وكان أحفظهم للحديث ، وابن المديني وكان أعرفهم باختلافه ، ويحيى بن معين وكان أعلمهم بالرجال ، وأحمد بن حنبل وكان أحمسهم لذلك كله " .
وعن شجاع بن مخلد قال : كنت عند أبي الوليد الطيالسي ، فورد عليه كتاب أحمد بن حنبل فسمعته يقول : ما بالمصرين – يعني البصرة والكوفة – أحد أحب إليّ مِن أحمد بن حنبل ولا أرفع قدرًا في نفسي منه .
وقال المزني : سمعت الشافعي يقول : ثلاثة مِن العلماء مِن عجائب الزمان .. عربي لا يعرب كلمة وهو أبو أثور ، وأعجمي لا يخطئ في كلمة وهو الحسن الزعفراني ، وصغير كلما قال كلمة صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل .
وقال علي بن المديني : أحمد بن حنبل سيدنا ، وقال أبو زرعة الدمشقي : ما رأت عيني مثل أحمد بن حنبل ، قلت له في العلم ؟ فقال في العلم والزهد والفقه والمعرفة وكل خير ما رأت عيناي مثله .
وعن الحسين بن الحسن الرازي قال : حضرت بمصر عند بقّال فسألني عن أحمد بن حنبل فقلت قولاً كريمًا عنه ، فلم يأخذ ثمن المباع مني ، وقال لا آخذ ثمنًا ممن يعرف أحمد بن حنبل .
وقال ابن ماكولا : الإمام أحمد هو إمام في النقل وعَلَم الزهد والورع .



وقال ابن عساكر : هو أحد الأعلام مِن أئمة الإسلام . وقال أبو داوود : كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يُذكر فيها شيء مِن أمر الدنيا ما رأيته ذكر الدنيا قط . وقال إسحاق بن راهوية : أحمد حجة بين الله وبين خلقه . وقال قتيبة بن سعيد : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة وجماعة . وقال أبو جعفر محمد بن هارون المخرمي المعروف بالغلاس : إذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع ضال .

_ جوانب العظمة في حياته

تميزت شخصية الإمام أحمد بن حنبل بعدد مِن الخصال البارزة ، ومنها :

1- الإخلاص في الأعمال :

قال عنه تلميذ أبو بكر المروزي : كنت مع أبي عبد الله نحوًا مِن أربعة أشهر بالعسكر ، وكان لا يدع قيام الليل وقراءة النهار فما علمت بختمة ختمها وكان يُسرّ بذلك .

حـدّثـتـني يا سـعـد عـنها فزدتني   جنونًا فزدني مِن حديثك يا سعدُ
هواها هوىً لم يعرف القلب غيره   فـليس لـه قبـلٌ ولـيس له بعدُ

2- الصلاة ودوام الاتصال :

قال عبد الله بن أحمد : كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، فلما فرض مِن تلك الأسواط أضعفته ، فكان يصلي كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة .

3- الدعوة إلى الخير وتعليم الرجال :

لم يكن يخبئ الإمام علمه بين الجدران ، بل كان ينزل إلى الجموع يعلمها ، وخاصةً عامة الأمة ، المثقف منها والأمي . وكان بِشر الحافي الزاهد المشهور – رحمه الله – يعدد ثلاث خصال امتاز بها الإمام أحمد وفُضّل بها على غيره وقَصّر هو عنها ؛ إحداها أنه نُصّب إمامًا للعامة . وقد قال صالح بن أحمد : جعل أبي يواصل الصوم يفطر في كل ثلاث على مر شهرين ، فمكث بذلك خمسة عشر يومًا يفطر في كل ثلاث ، ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة وليلة لا يفطر إلا على رغيف .

هكذا كان الإمام أحمد عليمًا بالحديث ، الأمر الذي وفّر له ثروة هائلة في العلم مكنته مِن الاستنباط . وقد وسّع باب القياس مما جعل الأحكام أقرب إلى مرامي الشارع ومقاصده المستوحاة مِن أعمال الرسول وأقواله ، وكانت هناك حاجة ماسة إلى أحكامه ، لأنّ العرب تفرّقوا بين الأمصار التي فتحوها وفيها أمم وشعوب مختلفة . وقد قدّم الإمام أحمد الحديث على الرأي والقياس ولو كان ضعيفًا . كما أنه أكمل مشوار الشافعي مِن ناحية تعظيم دور السنة في البناء الفقهي .

وكانت شخصية الإمام أحمد رمزًا للصمود والثبات على الإيمان الراسخ ورفض الأفكار الدخيلة على الإسلام والعقيدة الإسلامية .





مسلم بن الحجاج

(206 – 261هـ)

" إمام لا يلحقه مَن بعده عصره ، وقلَّ مَن يساويه بل يدانيه مِن أهل وقته ودهره " .
الحافظ أبو علي النيسابوري

صاحب الصحيح ، أحد أئمة الحديث ، ثقة حافظ مصنّف إمام عالم بالفقه ، مِن أهل خراسان وكان موطنه مِن أحسن مدن خراسان وأجمعها للميزات ، نشأ غنيًا سخيًا كما وردت الأخبار عنه ، فقد صرّح الذهبي في السِيَر أنه : كان صاحب تجارة وكان محسن نيسابور ولو أملاك وثروة .

_ رحلاته في طلب السماع

قال الإمام الذهبي : وأول سماعه في سنة ثمان عشرة مِن يحيى بن يحيى ، وحج في سنة عشرين وهو أمرد مستمع بمكة ، وسمع بالكوفة مِن أحمد بن يونس وجماعة وأسرع إلى وطنه ثم ارتحل بعد أعوام قبل الثلاثين : كان الإمام مسلم – رحمه الله – أحد الأعلام في الحديث وأئمة الشأن وكبار المبرزين فيه مِن أهل الحفظ والإتقان والرحالين في طلبه إلى أئمة الأقطار والبلدان ، والمعترف له بالتقدم فيه بلا خلاف عند أهل الحذق والعرفان والمرجوع إلى كتابه ، والمعتمد عليه في كل الأزمان ، سمع بخراسان مِن يحيى بن يحيى وإسحاق بن راهوية وآخرين ، وبالري مِن محمد بن مهران وأبي عتبان وآخرين ، وبالعراق مِن أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلمة وآخرين ، وبالحجاز مِن سعيد بن منصور وأبي مصعب وآخرين ، وبمصر مِن عمرو بن مسواد وحرملة بن يحيى وآخرين ، وخلائق كثيرين . كما أنه قدم بغداد غير مرة فروى عنه أهلها وآخر قدومه إليها في سنة تسع وخمسين ومائتين .



_ صلته بشيخه الإمام البخاري

لما قدِم الإمام البخاري إلى نيسابور كان أبو حاتم وأبو زرعة يجلسان إليه يسمعان ما يقول ؛ ولم يكن مسلم يبلغه ، ولكن في آخر أمره لازمه مسلم وأدام الاختلاف إليه . وقال الخطيب : إنما قفا مسلم طريق البخاري ونظر في علمه وحذا حذو . وقال الدار قطني : لولا البخاري ما راح مسلم ولا جاء .
وقال أحمد بن حمدون القصار : رأيت مسلمًا بن الحجاج جاء إلى البخاري فقبّل بين عينيه وقال : دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأساتيذ ، ويا سيد المحدثين وطبيب الحديث في علله ثم سأله عن حديث كفارة المجلس فذكر له علته ، فلما فرغ قال مسلم : لا يبغضك إلا حاسد وأشهد أن ليس في الدنيا مثلك .
وقد كان مسلم يناضل عن البخاري حتى أوحش ما بينه وبين محمد بن يحيى الذهلي بسببه ؛ قال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ : " لما استوطن البخاري نيسابور أكثر مسلم مِن الاختلاف إليه فلما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري ما وقع في مسألة اللفظ ، نادى عليه ومنع الناس مِن الاختلاف إليه حتى هُجر وخرج مِن نيسابور في تلك المحنة ، وقطعه أكثر الناس غير مسلم فإنه لم يتخلف عن زيارته حتى إن الذهلي قال يومًا لأهل مجلسه وفيهم مسلم بن الحجاج : ألا مَن كان يقول بقول البخاري في مسألة لفظ القرآن فليعتزل مجلسنا ، فنهض مسلم مِن فوره إلى منزله ، وجمع ما كان سمعه مِن الذهلي جميعه وأرسله إليه وترك الرواية عن الذهلي بالكلية ، فلم يروِ عنه شيئًا لا في صحيحه ولا في غيره ، واستحكمت الوحشة بينهما " .



ثناء وإجلال

أجمع العلماء على جلالته وإمامته وعلو مرتبته وحذقه في هذه الصنعة وتقدمه فيها , وتضلعه منها , ومن أكبر الدلائل على جلالته وإمامته وورعه وحذقه وتقدمه في علوم الحديث وتفننه في كتابه الصحيح ؛ قال الحاكم :

سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول رأيت شيخًا حسن الوجه والثياب وعليه رداء حسن وعمامة قد أرخاها بين كتفيه , فقيل هذا مسلم فتقدم أصحاب السلطان فقال قد أمر أمير المؤمنين أن يكون مسلم بين الحجاج إمام المسلمين , فقدموه في الجامع فكبر وصلى بالناس.



وقال أيضًا : قرأت بخط ابن عمرو المستملي , فقال : أملى علينا إسحاق ابن منصور إحدى وخمسين ومائتين ومسلم بن الحجاج يجيب عليه , وأنا أستملي , فنظر إسحاق بن منصور إلى مسلم فقال : لن نعدم الخبر ما أبقاك الله للمسلمين .

وقال عبد الرحمن بن أب حاتم :"كان مسلم ثقة من الحفاظ كتب عنه برأي " , وقال أبو قريش الحافظ : سمعت محمد بن بشار يقول :" الدين أربعة : أبو زرعة بالري , ومسلم بنيسابور , وعبد الله الدارمي بسمرقند , ومحمد بن إسماعيل ببخارى" . وقال أحمد بن مسلمة رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلمًا في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما .

وقال أيضًا : وسمعت الحسين بن منصور يقول : سمعت إسحاق بن راهوية ذكر مسلمًا فقال بالفارسية كلامًا معناه : أي رجل يكون هذا ؟! , وقال أبو عمر بن حمدان: " سألت الحافظ بن عقدة عن البخاري ومسلم أيهما أعلم ؟ فقال كان محمد عالمًا ومسلم عالمِا ".

وقال فيه شيخه محمد بن عبد الوهاب الفراء كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم , ما علمته إلا جيدًا وكان بزازًا , وكان أبوه الحجاج من المشيخة , وقال أبو بكر بن الجارودي : حدثنا مسلم بن الحجاج وكان من أوعية العلم . وقال عنه مسلمة بن القاسم : ثقة جليل القد من الأئمة . وقال ابن الأخرم : إنما خرجت مدرستنا هذه من رجال الحديث ثلاثة محمد بن يحي , إبراهيم بن أبي طالب , ومسلم .

ثناء أهل العلم على صحيحه

مع أن مسلمًا أخذ عن البخاري , إلا انه حصل له في كتابه حظ عظيم مفرط , لم يحصل لأحد مثله , بحيث أن بعض الناس كان يفضله على صحيح البخاري ؛ وذلك لما اختص به جمع الطرق , وجودة السياق , والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع ولا رواية بمعنى , وقال الحافظ أبو علي النيسابوري : ما تحت أديم السماء كتاب أصح مِن كتاب مسلم في علم الحديث . ومَن حقق نظره في صحيح مسلم – رحمه الله – واطلع على ما أودعه في أسانيده وترتيبه وسن سياقه وبديع طريقته ؛ مِن نفائس التحقيق وجواهر الدقيق وأنواع الدرر والاحتياط والتحري في الرواية وتلخيص الطرق واختصارها وضبط متفرقها وانتشارها وكثرة اطلاعه ، واتساع روايته ، وغير ذلك مما فيه مِن المحاسن والأعجوبات واللطائف الظاهرات والخفيات ، علم أنه إمام لا يلحقه مِن بعد عصره ، وقلَّ مَن يساويه بل يدانيه مِن أهل وقته ودهره وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقال ابن الشرقي : سمعت مسلمًا يقول : " وما وضعت شيئًا في كتابي هذا إلا بحجة وما أسقطت منه شيئًا إلا بحجة " . وقال أحمد بن مسلمة : كنت مع مسلم في تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وهو اثنا عشر ألف حديث . وقال محمد بن الماسرجي : سمعت مسلمًا يقول : صنفتُ هذا الصحيح مِن ثلاثمائة ألف حديث مسموعة .



_ مع العلم حتى الممات

قال محمد بن عبد الله بن أحمد بن سلمة النيسابوري : سمعت أبا عبد الله محمد بن يعقوب يقول سمعت احمد بن سلمة يقول : عُقد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلس للمذاكرة ، فذكر له حديث لم يعرفه فانصرف إلى منزله وأوقد السراج وقال لمن في الدار : لا يدخلن أحد منكم هذا البيت فقيل له : أهديتَ لنا سلة فيها تمر ، فقال : قدموها إليّ ، فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرةً تمرة يمضغها فأصبح وقد فنيَ التمر ووجد الحديث .

قال محمد بن عبد الله : زادني الثقة مِن أصحابنا أنه منها مات . وقال ابن كثير فحصل له بسبب ذلك ثـقلٌ ومرضٌ حتى توفي .





ابن حزم

(384 – 456هـ)

" أجمعُ أهل الأندلس لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة "
الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد

_ قصته مع طلب العلم

وذلك أنه شهد جنازة فدخل المجلس فجلس ولم يركع فقال رجل : قم فصلّ تحية المسجد ، وكان قد بلغ ستًا وعشرين سنة قال : فقمتُ وركعتُ فلما رجعنا مِن الصلاة على الجنازة دخلت المسجد فبادرت بالركوع ، فقال لي : احبس ! .. ليس ذا وقت صلاة وكان بعد العصر ، قال : فانصرفت وقد حزنت وقلتُ للأستاذ الذي رباني : دلني على دار الفقيه ابن دحّون قال : فقصدته فأعلمته بما جرى فدلني على موطأ مالك فبدأت عليه ، وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحوًا مِن ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة . وألّف ابن حزم في الأدب كتاب طوق الحمامة ، وألف في الفقه وأصوله وشرح منطق أرسطو وأعاد صياغة الكثير مِن المفاهيم الفلسفية وربما يعتبر أول مَن قال بالمذهب الاسمي في الفلسفة الذي يلغي مقولة الكليات الأرسطية (الكليات هي أحد الأسباب الرئيسية للكثير مِن الجدالات بين المتكلمين والفلاسفة في الحضارة الإسلامية وهي أحد أسباب الشقاقات حول طبيعة الخالق وصفاته) .



ولم يمت ابن حزم حتى كتب (المحلّى) ؛ الذي يحتاج إليه المجتهد المطلق ! .

_ ومع الهمة .. عقل وقاد

ومع الهمة حفظ وعقل وقاد ، قال ابن حزم لما أحرق المعتضد العبادي عددًا مِن كتبه :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفنُ في قبري
دعوني مِن إحراق رَقّ وكاغدٍ ... وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس مَن يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله مِن سِترِ
كذاك النصارى يحرقون – إذا علت ... أكفهم – القرآن في مدن الثغرِ

_ هو البحر !

قال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ، ووفور حظه مِن البلاغة والشِعر والمعرفة بالسير والأخبار ، أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد بن تواليفه أربعمائة مجلد ، تشمل على قريب مِن ثمانين ألف ورقة .

قال أبو عبد الله الحميدي : كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقيهًا مستنبطًا للأحكام مِن الكتاب والسنة متفننًا في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، ما رأينا مثله فيما اجتمع له في الأدب والشعر نفسًا واسعًا وباعًا طويلاً وما رأيت مَن يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير .

وقال الإمام الذهبي في (السير) : لم ينصف القاضي أبو بكر ابن العربي – رحمه الله – شيخ أبيه في العلم ولا تكلم بالقسط وبالغ في الاستخفاف به ، وأبو بكر – على عظمته في العلم – لا يبلغ رتبة أبي محمد ولا يكاد رحمهما الله وغفر لهما .



وقال اليسع بن حزم الغافقي وذكر أبا محمد فقال : " أما محفوظه فبحر عجاج وماء ثجاج ، يخرج مِن بحره مرجان الحكم ، ينبت بثجاجة ألفاف النعم في رياض الهم ، لقد حفظ علوم المسلمين وأربى على كل أهل دين وألّف الملل والنحل " .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام – وكان أحد المجتهدين - : " ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلّى لابن حزم وكتاب المغني للشيخ موفق الدين " . قال الذهبي : قلت : لقد صدق الشيخ عز الدين وثالثهما السنن الكبير للبيهقي ورابعهما التمهيد لابن عبد البر ، فمن حصّل هذه الدواوين وكان مِن أذكياء المهتمين وأدمن المطلعة فيها ، فهو العالم حقًا .



وقال ياقوت الحموي في معجم الأدباء : ((ذُكر أن ابن حزم اجتمع يومًا مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ، صاحب التواليف الكثيرة ، وجرت بينهما مناظرة في سنة (440هـ) فلما انقضت ، قال أبو الوليد الباجي لابن حزم : تعذرني فإن أكثر مطالعاتي كانت على سرج الحراس ، قال ابن حزم : وتعذرني أيضًا فإن أكثر مطالعاتي كانت على منائر الذهب والفضة . قال ياقوت الحموي : أراد ابنُ حزم أن الغني أضيع لطلب العلم مِن الفقير .

_ فخر وأمنيات

وحق لابن حزم أن يفخر ؛ حيث يقول :

أنا الشمس في جو العلوم منـيرة ولكـن عيبـي أن مطلعي الغربُ !
ولو أنني مِن جانب الشرق طالعٌ لجدَّ على ما ضاع مِن ذكري الشُهبُ

ولله دره حين يقول :

مـناي مِـن الدنيا علوم أبثـها وأنشـرها في كـــل بادٍ وحاضرِ
دعاء إلى القرآن والسنن التي تناسى رجال ذكرها في المحاضرِ
وألزم أطراف الثغور مجاهدًا إذا هيعـــة ثـــارت فـــأولُ نافـرِ
لألقى حمامي مقبلاً غير مدبرٍ بسمـــر العـــوالي والرقاق البواترِ

إن رؤية ابن حزم الفلسفية التجديدية تجعله ركنًا أساسيًا في أي قراءة للتراث العربي الإسلامي رغم أن مدرسته الفقهية رُفضت أشد الرفض مِن قِبل المدرسة الإسلامية التقليدية التي اعتمدت المذاهب الأربعة للسنة وأغلقت الباب أمام أي تعديل أو اجتهاد .



ابن تيمية

(661 – 728هـ)

" لو أقسمت بين الركن والمقام أني ما رأيت مثله ولا رأى مثله لصدقت ولبررت " .
الذهبي

عشقٌ منذ الصِغر

لقد كانت بداية شيخ الإسلام ابن تيمية وولعَه بالعلم منذ الصغر ؛ قال الحافظ عمر البزار في الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية : لم يزل منذ صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد ، وختم القرآن صغيرًا ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى في ذلك ... إلى أن قال ... وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان ، لم يكن ليقف على شيء أو يتسمع لشيء غالبًا إلا ويبقى على خاطره إما بلفظه أو معناه . وكان العلم قد اختلط بحكمه ودمه وسائره فإنه لم يكن مستعارًا بل كان له سفارًا ودثارًا .



وقال الحافظ الذهبي : كان يحضر المدارس والمحافل في صغره ، ويناظر ويفحم الكبار ، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة ، بل أقل ، وشرع في الجمع والتأليف مِن ذلك الوقت وواكب على الاشتغال .

بحرٌ في سائر العلوم

لم يكن شيخ الإسلام ابن تيمية مقتصرًا على فن مِن الفنون العلمية بل كان بحرًا في سائر ما كان معروفًا في عصره مِن العلوم ، فبعد علمه بما جاء في الكتاب والسنة كان عالمًا – كذلك – بالفلك والرياضيات والجغرافيا والطب وغيرها مِن العلوم المنتشرة في عصره ، وكان يناقش كل أهل فن مِن تلك الفنون بعلم غزير ، وكان أعلم بمذاهب أهل الباطل أنفسهم ، وبهذا تمكن مِن الدخول إلى صميم دعاويهم حتى أبطلها بالعقل والنقل .

وقال ابن الزملكاني : كان إذا سئل عن فن مِن العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحدًا لا يعرف مثله .

حسن تصنيف وجودة عبارة

وعن مصنفه يقول الذهبي : ((جمعت مصنفات شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية فوجدت ألف مصنف ، ثم رأيت له مصنفات أخرى ...)) ، ومِن العجيب أن شيخ الإسلام ذو ذاكرة فولاذية فربما ألف المصنف وهو في السجن وينقل فيه كل شيء ويعزو إلى المصدر وفي هذا يقول الحافظ عمر البزار : " ومَن أعجب الأشياء أنه في محنته الأولى بمصر لما أخذ وسجن وحيل بينه وبين كتبه صنف عدة كتب صغارًا وكبارًا ، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره مِن الأحاديث والآثار وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم وعزا كل شيء في ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم وذكر أسماء الكتب التي ذكر منها ، وأي موضع هو منها ، كل ذلك بديهة مِن حفظه ، لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه ونقبت واعتبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلل ولا تغير وهذا مِن الفضل الذي خصه الله تعالى به "



وقد صنف تلميذه النجيب ابن القيم : كتابًا أسماه مؤلفات ابن تيمية ، حققه صلاح الدين المنجد وطبع بدار الكتاب الجديد ببيروت . وكانت له اليد الطولي في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقييم والتبيين شهد له بذلك خصمه ابن الزملكاني وكان يتكلم اللغات العربية والفارسية واللاتينية ويُفهم ذلك مِن قوله .

_ بالدعاء كان الفتح



كان ابن تيمية يستعين بالدعاء في كل أموره فكان – رحمه الله – يقول : ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم وأقول : يا معلم آدم وإبراهيم علمني ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول : يا معلم إبراهيم فهمني .

_ ابن تيمية في عيون العلماء

ما عاصر ابن تيمية أحدًا إلا وأثنى عليه ، وشهد له كثير ممن رآه ، فقد قال عنه ابن سيدة : " ألفيته ممن أدرك مِن العلوم حظًا وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظًا ، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ... ولم ترَ عين مَن رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه " .

وقال عنه الذهبي : " هو أكبر مِن أن ينبه مثلي على تفوقه فلو حلفت بين الركن والمقام حلفت أني ما رأيت بعيني مثله ، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم " .



وقال عنه ابن دقيق العيد : " لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه ، يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد " .

وقال ابن حجر العسقلاني : " لو لم يكن للشيخ تقي الدين مِن المناقب إلا الشيخ شمس الدين ابن القيم صاحب التصانيف السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظيم منزلته ، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم والتميز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره مِن الشافعية وغيرهم فضلاً عن الحنابلة .

وقال فيه العلامة شيخ الشافعية ابن الزملكاني :

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصرِ
هو حجة الله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهرِ
هو آية للخلق ظاهرة ... أنواره أربت على الفجرِ

_ حياةٌ حافلة ومماتٌ مشرّف

كان خصوم ابن تيمية في كثير مِن المحن هم قضاته مِن الفقهاء الذين كبر عليهم مخالفته لهم في فتاويهم وآرائهم ، ومِن الصوفية وأهل الكلام وقد سُجن مرات عديدة منها (سنة 705هـ) في يوم الجمعة السادس والعشرين مِن رمضان وفي ليلة العيد نقل إلى مكان آخر بالجب وظلَّ حبيسًا عامًا كاملاً ثم خرج مِن السجن في الثالث والعشرين مِن ربيع أول (سنة 707هـ) ثم حُبس مرة أخرى بسبب دعاوى بعض الصوفية ثم خرج (سنة 709هـ) يوم عيد الفطر ثم امتحن مرةً أخرى (عام 726هـ) ومنع مِن الإفتاء واعتقل وكان ذلك يوم الجمعة السابع مِن شعبان وظل في سجنه سنتين وأشهر ومات في ليلة الاثنين لعشرين خلت مِن ذي القعدة (سنة 728هـ) وشهد جنازته مِن الخلائق ما لا يحصره عد ، وكانت مثلاً واضحًا لقول الإمام أحمد : " قولوا لأهل البدع بينا وبينكم شهود الجنائز " .

وهكذا مات شيخ الإسلام ابن تيمية بعد حياة حافلة بالدعوة والجهاد والتدريس والفتوى والتأليف والمناظرة والدفاع عن منهج السلف ولم يتزوج ولم يتسرَّ ولم يخلّف مالاً .

رحم الله شيخ الإسلام رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ، وجزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .



الذهبي

(673 – 748 هـ)

" محدث العصر، اشتمل عصرنا على أربعة مِن الحفاظ بينهم الذهبي " .
تاج الدين السبكي

أسرة تحب العلم تصنع عالمًا

عاش الذهبي طفولته بين أكناف عائلة علمية متينة ، فكانت مرضعته وعمته (ست الأهل) بنت عثمان الحاجة أم محمد قد حصلت على الإجازة مِن ابن أبي السير ، وجمال الدين بن مالك ، وزهير بن عمر الزرعي ، وجماعة آخرين . وسمعت مِن عمر بن القراسن وغيره وروى الذهبي عنها .



وقد أسرع أخوه مِن الرضاعة علاء الدين علي بن إبراهيم بن العطار ليستجيز له جملة مِن مشايخ عصره في سنة مولده ؛ مِن دمشق وحلب ومكة والمدينة ، فانتفع بهذه الإجازة انتفاعًا شديدًا – كما يقول ابن حجر - .

بداية الرحلة

بدأ الذهبي رحلة طلب العلم ، وبدأ بالمؤدب علي بن محمد المعروف بالبصيص ، فأقام في مكتبته أربعة أعوام ثم اتجه بعد ذلك إلى شيخه مسعود بن عبد الله الصالحي فلقنه جميع القرآن ثم قرأ عليه النحو .

وبداية العشق

وبدأ الذهبي يعتني بطلب العلم حينما بلغ الثامنة عشرة مِن عمره وتوجهت عنايته إلى القراءات والحديث وتميز في دراسة القراءات وبرع فيها براعة جعلت شيخه شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدمياطي يتنازل له عن حلقته بالجامع الأموي في أواخر سنة (692 هـ) حينما أصابه المرض الذي توفي فيه .

عاشق الحديث

وفي الوقت نفسه كان الذهبي وهو في الثامنة عشرة مِن عمره قد مال إلى سماع الحديث واعتنى به عناية فائقة ، وطغى هذا العلم على كل تفكيره واستغرق كل حياته فسمع ما لا يُحصى مِن الكتب ولقي كثيرًا مِن الشيوخ والشيخات وأصيب بشرهٍ في سماع الحديث وقراءته وافقه ذلك طيلة حياته حتى كان يسمع مِن أناس قد لا يرضى عنهم ؛ كما أخبر هو بذلك في ترجمة علي بن مظفر الإسكندراني فقال عنه : " لم يكن عليه ضوء في دينه ، حملني الشره على السماع مِن مثله " .

آية مِن آيات الله

قرأ على عبد الرحمن بن عبد الحليم الدكالي بالإسكندرية فختم عليه بقراءتي ورش وحفص في أحد عشر يومًا . وكان يجهد نفسه في قراءة أكبر كمية ممكنة على شيوخ تلك البلاد ، فقد ذكر – مثلاً – أنه قرأ سيرة ابن هشام على شيخه أبي المعالي الأبرقوهي في ستة أيام فقط .

همةٌ لا تكلُّ ولا تملُّ

لم ينقطع الذهبي عن السماع والدراسة طيلة حياته ، وكان سماعه متنوعًا ، فقد درس النحو ودرس على شيخ العربية ابن النحاس ، واهتم بالأدب وقرأ في التاريخ لكن علمه الأول هو الحديث سماعًا وإقراءً .

> يقول أحدهم : إذا وجدت كتابًا جديدًا كأنني عثرت على كنز

حياةٌ حافلةٌ بالعطاء

اختصر الذهبي عددًا ضخمًا مِن الكتب تربو على خمسين كتابًا ، منها أسد الغابة ، منها تاريخ الصحابة الذين نزلوا حمص ، واختصر تاريخ بغداد للخطيب ، والذيول عليه ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ نيسابور للحاكم ، وتاريخ خوارزم لابن رسلان ، والحق أن الذهبي هو صاحب التآليف الجمة الغزيرة العلم ؛ قال ابن ناصر الدين عنه : " ناقد المحدثين وإمام المعدلين والمجرحين ، كان آية في نقد الرجال ، عمدة في الجرح ولتعديل " .

ثناء مستحَق

قال تلميذه الصفدي : " الشيخ لإمام العلامة الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي ، حافظ لا يُجارى ولا قط يُبارى ، أتقن الحديث ورجاله ، ونظر علله وأحواله ، وعرف تراجم الناس وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس ، أكثر مِن التصنيف ووفّر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف " .

> ذكر عن العلماء أنهم كبروا جيوبهم لحمل الكتب

ووصفه تلميذه ابن كثير فقال : الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين ، قال عنه تلميذه محمد بن محمد بن عبد الكريم :

ما زلت بالسمع أهواكم وما ذُكرت ... أخبـاركم قـط إلا مِلتُ عن طربِ
وليس مِن عجبٍ إن مِلتُ نحـوكم ... فالناس بالطبع قد مالوا إلى الذهبِ

قال سبط ابن حجر : " حافظ الوقت الذي صار هذا اللقب علمًا عليه ، فلله دره مِن إمام محدث ، فكم دخل في جميع الفنون وخرج ، وصحح وعدّل وجرح وأتقن هذه الصناعة ، فهو الإمام ، سيد الحفاظ ، إمام المحدثين ، قدوة الناقدين " .
وقال السيوطي : " إن المحدثين في عصره عيال في الرجال وغيره مِن فنون الحديث على أربعة أحدهم الذهبي " .

مع السبكي في رثائه

توفي الإمام الذهبي عام (748 هـ) بدمشق ، ورحم الله السبكي يوم أن قال يرثيه :

مَن للحديث وللسـارين في الطـلبِ ... مِن بعد موت الإمام الحافظ الذهـبي
مَـن للـرواية والأخـبار ينشـرها ... بيـن البـرية مِن عجـمٍ ومِن عربِ
مَـن للدراسـة والآثـار يحفظـها ... بالنقد مِن وضع أهل الـفيّ والكذبِ
مَن للصـناعة يـدري حل معظلها ... حتى يريـك جـلاء الشك والـريبِ
مَن للجـماعة أهـل العلم تلبسهم ... أعلامه الغـر مِـن أبـرادها القشبِ
مَن للتخـاريج يبديها ويـدخل في ... أبـوابـها فـاتحًا لمقفـل الأشـبِ
مَن في القـراءات بين الناس نافعهم ... وعـاصم ركنها في الجحفل اللجبِ
مَـن للخطـابة لـما لاح يـرفل في ... ثوب السـوادِ كبـدرٍ لاح في سحبِ
هو الإمـام الـذي روت روايـته ... وطبـق الأرض مِن طـلابه النجبِ
مهـذب القـول لاعـيٌّ ولـلجـةٌ ... مثبت النقل سامي القصـدِ والحسبِ

ثبت صـــدوق خبـيـر حــافظ يقظ   في النقلِ أصــدق أنباءً مِــن الكتبِ
كالزُهرِ في حسبٍ والزَهر في نسبٍ   والنهر في حــدبٍ والدهر في رتبِ

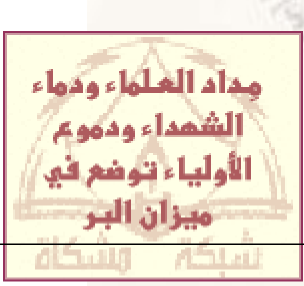


وقد ترك الإمام الذهبي إنتاجًا غزيرًا مِن المؤلفات ، بلغ أكثر مِن مائتي كتاب ، شملت كثيرًا مِن ميادين الثقافة الإسلامية فتناولت القراءات ، والحديث ومصطلحه ، والفقه وأصوله ، والعقائد والرقائق ، غير أن معظم هذا الإنتاج يُغطّي علم التاريخ وفروعه .

وثلث هذا العدد مختصرات قام بها الذهبي لأمهات الكتب التاريخية المؤلَّفة قبله ، فاختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ نيسابور لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، وتاريخ مصر لابن يونس ، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ، والتكملة لوفيات النـّقلة للمنذري ، وأسد الغابة لابن الأثير . وقد حصر الدكتور شاكر مصطفى الكتب التي اختصرها الذهبي في 367 عملاً .

غير أن أشهر كتبه كتابان هما : (تاريخ الإسلام وفيات المشاهير والأعلام) ، وهو أكبر كتبه وأشهرها ، تناول فيه تاريخ الإسلام مِن الهجرة النبوية حتى سنة (700 هـ - 1300 م) وتضمن هذا العمل الحوادث الرئيسية التي مرت بالعالم الإسلامي مع تراجم للمشهورين في كل ناحية مِن نواحي الحياة . ويبلغ عدد مَن تَرْجَم لهم الذهبي في هذا الكتاب الضخم أربعين ألف شخصية . أما الكتاب الثاني فهو : (سير أعلام النبلاء) وهذا الكتاب أضخم أعمال الذهبي بعد كتابه (تاريخ الإسلام) ، وهو كتاب عام للتراجم التي سبقت عصر الذهبي .





بقيُّ بن مَخْـلد

(201 – 267 هـ)

" صاحب التفسير والمسند ، اللذين لا نظير لهما "
الذهبي

كتابان جليلان وجهاد جبّار

لقد ألف الإمام بقي بن مخلد كتابين للدنيا ؛ الأول المسند والثاني التفسير ، قال عنهما الذهبي : صاحب التفسير والمسند اللذين لا نظير لهما ، عُني بالحديث عناية لا مزيد عليها ، وأدخل جزيرة الأندلس علمًا جمًا ، وبه وبمحمد بن وضاح صارت تلك الناحية دار حديث .



وأما التفسير فقد قال عنه ابن حزم : " أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسير (بقي) ، ولا تفسير محمد بن جرير ولا غيره " . وقال ابن حزم في المسند : " ومسند بقيٍّ روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه ، فهو مسند ومصنف ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه في الحديث " .
ومِن الإنتاج العلمي الذي يحسب لبقيّ بن مخلد أنه ادخل كتبًا إلى الأندلس لم تكن معروفة عند أهل الأندلس ، وهي : مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، وكتاب (الأم) للشافعي ، وكتاب (سيرة عمر بن عبد العزيز) لأحمد بن إبراهيم الدورقي ، وغيرها .

إلى الإمام أحمد

قال حفيده عبد الرحمن بن أحمد : سمعت أبي يقول : ((رحل أبي مِن مكة إلى بغداد وكان رجلاً يبغي ملاقاة احمد بن حنبل ، قال : فلما قربت بلغتني المحنة وأنه ممنوع فاغتممت غمًا شديدًا فاحتللت بغداد واكتريت بيتًا في فندق ، ثم أتيت الجامع وأنا أريد أن أجلس إلى الناس فدفعت إلى حلقة نبيلة ، فإذا برجل يتكلم في الرجال فقيل لي : هذا يحيى بن معين ففرجت لي فرجة فقمت إليه فقلت : يا أبا زكريا رحمك الله ، رجل غريب ناء عن وطنه يحب السؤال فلا تستجف ، فقال : قل ، فسألت عن بعض مَن لقيته فبعضًا زكى وبعضًا جرح ، فسألته عن هشام بن عمار ؟ فقال لي : أبو الوليد صاحب ثقة وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كبر ما ضره لخيره وفضله ، وصاح أصحاب الحلقة يكفيك غيرك له سؤال ، فقلت له وأنا واقف على قدم : اكشف عن رجل واحد : احمد بن حنبل ، فنظر إليّ كالمتعجب ، فقال لي : ومثلنا نحن نكشف عن أحمد ، ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم ، فخرجت أستدلُّ على منزل أحمد بن حنبل ، فدللتُ عليه ، فقرعت بابه فخرج إليَّ فقلت : يا أبا عبد الله ، رجل غريب ، نائي الدار ، هذا أول دخولي هذا البلد ، وأنا طالبُ حديثٍ ومقيدُ سنة ، ولم تكن رحلتي إلا إليك ، فقال : ادخل الأصطوان ولا تقع عليك عين ، فدخلت فقال لي : وأين موضعك ؟ قلت : المغرب الأقصى ، فقال : أفريقية ؟ قلت : أبعد مِن أفريقية ، أجوز مِن بلدي البحر إلى أفريقية ، بلدي الأندلس ، قال : إن موضعك لبعيد ، وما كان شيء أحب إليّ مِن أحسن عون مثلك ، غير أني



ممتحن بما لعله قد بلغك ، فقلت : بلى ، وقد بلغني وهذا أول دخولي وأنا مجهول العين عندكم فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في زي السؤال ، فأقول عند الباب ما يقول السؤال فتخرج إلى هذا الموضع ، فلو لم تحدثني كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية ، قال : نعم ، على شرط أن لا تظهر في الحِلَق ولا عند المحدثين قلت : لك شرطك ، فكنت آخذ عصا بيدي ، وألفُّ رأسي بخرقة مدنسة وأجعل كاغدي



وأوراقي في كمي وآتي بابه فأصيح : الأجر – رحمك الله – (والسؤال هناك كذلك) ، فيخرج إليّ ويغلق ، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر ، فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له ، وولي بعده مَن كان على مذهب السنة ، فظهر أحمد وعلت إمامته ، وكانت تُضرب إليه آباط الإبل ، فكان يعرف لي حق صبري ، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي ، ويعرض على أصحاب الحديث قصتي معه ، وكان يناولني الحديث مناولة ويقرأه عليّ وأقرأه عليه ، فاعتللت علة أشفيت منها ، ففقدني مِن مجلسه فسأل عني فأُعلم بعلتي ، فقام مِن فوره مقبلاً إليّ عائدًا لي بمن معه ، وأنا مضطجع في البيت الذي اكتريته ولبدي تحتي وكسائي عليَّ وكتبي عند رأسي فسمعت الفندق قد ارتج بأهله وأنا أسمعهم : هو ذلك إمام المسلمين مقبلاً فبدر إليّ صاحب الفندق ، فقال لي : يا أبا عبد الرحمن هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مقبلاً إليك عائدًا لك ، فدخل فجلس عند رأسي وقد احتشى البيت مِن أصحابه ، فلم يسعهم حتى صارت فرقة منهم في الدار وقوفًا وأقلامهم بأيديهم ، فما زادني على هذه الكلمات : أبا عبد الرحمن أبشر بثواب الله ،أيام الصحة لا سقم فيها ، وأيام السقم لا صحة فيها ، أعلاك الله إلى العافية ومسح بيمينه الشافية ، فرأيت الأقلام ثم خرج عني فأتاني أهل الفندق يلطفون بي ويخدمونني ديانة وحسبة ، فواحد يأتي بفراش وآخر بلحاف وبأطايب الأغذية وكانوا في تمريضي أكثر مِن تمريض أهلي لو كنت بين أظهرهم ؛ لعيادة الرجل الصالح)) .

_ مِن عجائب طلبه للعلم

قام بقيّ بن مخلد برحلتين إلى مصر والشام والحجاز وبغداد طلبًا للعلم ، امتدت الرحلة الأولى أربعة عشر عامًا والثانية عشرين عامًا . مع العلم أن جميع رحلاته على قدميه ؛ قال – رحمه الله – " كل مَن رحلت إليه فماشيًا على قدمي ، وكل مَن سمعت منه في البلدان ماشيًا على قدمي " .

وقال أحد تلاميذه عن : " كان بقيّ طوالاً قويًا جلدًا على المشي ، لم يُرَ راكبًا دابة قط ، متواضعًا ملازمًا لحضور الجنائز " .

وكان مِن مناقبه – رحمه الله – أنه كان يصلي بعد حزبه مِن المصحف صلاةً طويلةً جدًا ، ثم ينقلب إلى داره – وقد اجتمع في مسجده الطلبة – فيجدد الوضوء ، ويخرج إليهم فإذا انتهى صار إلى صومعة المسجد ، فيصلي الظهر ، ثم يكون هو المبتدئ بالأذان ثم يهبط ثم يسمع إلى العصر ويصلي ويسمع ، وربما خرج في بقية النهار فيقعد بين القبور يبكي ويعتبر . فإذا غربت الشمس أتى مسجده ثم يصلي ويرجع إلى بيته فيفطر ، وكان يسرد الصوم إلا يوم الجمعة ، ويخرج إلى المسجد فيخرج إلى جيرانه فيتكلم معهم في دينهم ودنياهم ثم يصلي العشاء ويدخل بيته فيحدث أهله ثم ينام نومة قد أخذتها نفسه ثم يقوم وكان هذا دأبه إلى أن توفي . وكان جلدًا قويًا على المشي .





الشوكاني

(1173 – 1250 هـ)

" كان مبرزًا في علوم كثيرة ، ولا سيما علوم لسنة والتفسير والفقه ؛ فروعه وأصوله ، مؤرخ له شعر حسن " .
القاضي إسماعيل الأكوع

_ منبتٌ حسن وولد صالح

إن الأسرة هي المحضن الأول للتربية ، ويوم تقوم بالدور الأكمل تخرج للأمة رجالاً أبطالاً ، وعلماء أجلاء فهذا الإمام تربى على يد والده بصنعاء ، وكان أبوه قاضيًا وعالمًا ومعروفًا بالطيبة والصلاح ، فتربى الابن على العفاف والطهارة والتفرغ لطلب العلم ، يتلقى في بيت أبيه جميع أسباب الحياة ووسائل الرزق . وقد ابتدأ تحصيله العلمي الواسع بقراءة القرآن وحفظه على جماعة مِن المعلمين وختمه على الفقيه حسن بن عبد الله الهبل ، وجوّده على جماعة مِن مشايخ القرآن بصنعاء ، ثم انتقل إلى حفظ كثير مِن المتون كـ (الأزهار) للإمام المهدي في الفقه ، و (مختصر الفرائض) للعصيفري ، و (الملحة) للحريري ، و (الكافية) و (الشافية) لابن الحاجب ، و (التهذيب) للتفتازاني ، و (التلخيص في علوم البلاغة) للقزويني ، وغيرها .



وقرأ عدة كتب في التاريخ والأدب ، ثم شرع في السماع والطلب على العلماء البارزين في اليمن ، حتى استوفى كل ما عندهم مِن كتب ، وتقدم للإفتاء وهو في نحو العشرين مِن عمره ، ولم يعترض عليه شيوخه .

_ علم وتعليم

وكان الشوكاني ذا طريقة خاصة في الطلب ؛ فقد كان يجمع في وقت واحد بين الأخذ والعطاء والعلم والتعليم ، فكان يحصل دروسه عند مشايخه ثم يتفرغ بهد ذلك لطلاب العلم .

_ همة عالية لا تعرف الدنوّ

ومِن العجيب عند هذا الإمام أنه ذو همة عالية لا تعرف الدنو ، بل ألِفت العلوّ الدائم ؛ فهو طالب ومعلم في الوقت نفسه ، ولهذا قال مَن ترجم عنه : إن دروسه كانت تبلغ في اليوم والليلة ثلاثة عشر درسًا ، منها ما يأخذه عن أساتذته ، ومنها ما يبقيه على تلاميذه ، وكان كل درس يأخذ ساعة ونصف أو ساعتين ، فهو يحتاج إلى ثلاث عشرة ساعة أو ستٍ وعشرين ساعة ، ولكنها البركة الربانية لهؤلاء الذين أعلوا راية العلم وبذلوا مِن أجله الغالي والرخيص .

_ جدٌّ وزهدٌ واجتهاد

يمتاز الإمام الشوكاني بالجد والمثابرة والحيوية والنشاط والذكاء الفطري ، وقد ظهر هذا في اتساع ثقافته وعمق تفكيره وتصديه للإصلاح والاجتهاد ، وهو لم يرحل في طلب العلم بسبب عد إذن والديه له , ولكنه عوَّض ذلك بالسماع والإجازة , لكل ما وقعت عليه يده من الكتب وفي مختلف العلم.



وكان - رحمه الله – زهداً في الدنيا والمناصب , ولكنها أبت إلا أن تأتي إليه صاغرة , فقد اختير للقضاء في صنعاء وعمره ستٌّ وثلاثون سنة , وجمع بين القضاء والوزارة , فأصبح متوليًا شؤون اليمن الداخلية الخارجية , وسار في الناس بأحسن سيرة .

وأما اجتهاده فقد كان الشوكاني حرباً ضروساً على التقليد وأهله , بل دعا إلى نبذ التقليد والتعصب بالنظر في الأدلة والعودة إلى هدي الكتاب والسنة ؛ وسبب ذلك هو الاطلاع الواسع الذي عرف به ؛ يقول العفاني : في الجملة فقد درس دراسة واسعة واطلع اطلاعاً قلَّ أن يحيط به جمع غفير , فليس مِن المستطاع سرد ما درسه من كتب واستفادة من مراجع , ومن يرجع إلى كتابه (إتحاف الأكابر بإمساك الدفاتر) – مثلاً- يدرك ما كان عليه الرجل من تنوع في الثقافة واتساع فيها , وقد برع في كل ذلك تقريباً , وصنف في كل ذلك ودرس فيه .

_ المذهب والعقيدة

كان مذهب الشوكاني في مطلع حياته المذهب الزيدي , وقد حفظ أشهر كتب المذهب , وألف فيه كتابًا وبرع في مسائله وأحكامه , حتى أصبح قدوة , ثم طلب الحديث وفاق أهل زمانه من الزيدية وغيرهم , مما جعله يخلع ربقة التقليد , ويدعو إلى الاجتهاد ومعرفة الأدلة من الكتاب والسنة .



ويظهر هذا الموقف الاجتهادي في رسالة له سماها (القول المفيد في حكم التقليد) , وفي كتاب فقهي كبير اسمه (السيل الجرَّار المتدفق على حدائق الأزهار) .

وأما عقيدته فكانت عقيدة السلف الصالح ؛ وهي حمل صفات الله تعالى الواردة في القرآن والسنة الصحيحة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف , وله رسالة اسماها (التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف) وقد دعا إلى نبذ كلام المتكلمين , وتطهير عقيدة التوحيد من مظاهر الشرك , وتخليص ما دخل على حياة الناس وتدينهم من البدع والخرافات , و ويظهر هذا جليًا في كثير من كتبه , وبخاصة كتابه (قطر الولي على حديث الولي) .

_ من مشكاة الشوكاني

يقول الشوكاني رحمه الله : ((استكثر من الفنون ما أردت , وتبحر في الدقائق ما استطعت , وجاوب من خالفك وعزلك وشنَّع عليك بقول القائل :

أتانا أن سهلاً ذمَّ جهلاً   علومًا ليس يعرفها سهلُ
علومًا لو دراها ما قلاها   ولكنّ الرضا بالجهل سهلُ

_ علمٌ غزير وتصنيف بديع

قال صاحب كتاب أبجد العلوم :

جم الإمام الشوكاني – رحمه الله تعالى – في شخصيته العلمية الفذة ثلاثة أمور رشحته إلى أن يُعدَّ من أعلام المسلمين ومن المجددين , الذين يبعث الله على رأس كل قرن واحدًا للأمة دينها ويشحذ روح العزة والمحبة فيها وهي :

1- سعة التبحر في العلوم علة اختلاف أجناسها .
2- كثرة التلاميذ المحققين الذين يحيطون به ويسجلون كلامه وينقلون كتبه وأفكاره .
3- سعة التأليف في مختلف العلوم والفنون .

ويمكن تقسيم كتبه إلى قسمين:

الأول : المطبوعات , ومنها :



1- إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر.
2- إرشاد الثقات .
3- إرشاد الفحول إلى علم الأصول .
4- البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع .
5- التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف .
6- تحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين .
7- تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه مِن الدلائل .
8- تنبيه الأعلام على تفسير المشبهات بين الحلال والحرام .
9- الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد .
10- الدرر البهية في المسائل الفقهية .
11- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار .
12- فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية في علم التفسير .
13- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار .

والقسم الثاني للكتب المخطوطة

يقول محمد صبحي حلاق : إن مؤلفات الإمام الشوكاني المخطوطة بلغت مائتين وأربعين مؤلفًا ما عدا الكتب المطبوعة السابقة .

ما سبق كان مقتطفات مِن سير السلف الصالح ، صحبناهم في سيرة مقتطفة مِن حياتهم ، كان حرصنا في ذلك ومبتغانا هو شحذ الهمم في نفسك أيها القارئ لتعلم أن ما وصلوا إليه مِن درجات ، وما خلّد اسمهم طيلة هذه القرون حتى يومنا هذا إنما هو العلم الذي سعوا إليه وضحوا لأجله بالغالي والنفيس ، فهلا شمرت عن ساعدك وبدأت العمل ؟! .





الفصل الخامس
كيف تعشق ؟ ومَن تعشق ؟

تركنا عشق الخدود والقدود والعيون السود ، وسمَوْنا إلى عشق ديوان المكارم وموسوعة القيم ومنبر المجد ومنارة المعرفة لنصل بأنفسنا وبإخواننا إلى أعــذب قصة في العشــق وأجمل رواية في الحب وأحسن أنشودة في الغرام ، إنه عشق كتاب نافع مِن مغرمٍ محبٍّ

عاشق

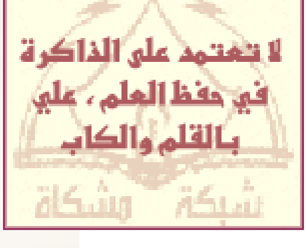
ذكي وجَد في الكتاب بغيته وفي الحرف مطلوبه ، فنسي كلَّ معشوق آخر !



سوف نحط رحالك ــ في هذا الفصــل ــ على عتبات كتبٍ تبدأ بها رحلة عشقك .. نحاول أن نقدم لك خلاصة تجــاربنا في التعامــل مــع هــذه الكـتب ، وكيفـية الاستفادة منها على الوجه الأكمل .

قرة عيون العشاق

اقرأ كتابك كفى بك داءً أن ترى الجاهل يُقبل عليك ثم لا تقرأ ، وقفا نبك مِن ذكرى أمّة أوتيت كتابًا هجرته ولكل امرئ مِن دهره ما تعودا ، وعادة أهل الفضل مطالعة دواوين المعرفة في كل آن ، إن العيون التي سهرت لطلب العلم مأجورة وعلى قدر أهل العزم تتدلى لها النجوم وتحتفل بهم الكواكب ، ولا عيب في العباقرة غير أن كتبهم مِن كثرة التفتيش والقراءة تكاد تتمزق ، ليس الغبي بسيد قومه ؛ لكن الذكي بعلمه الألمعي بفطنته هو سيد الأقوام ، وإذا أراد الله نشر فضيلة الأبرار أتاح لهم رغبة عارمة في العلم ، ومطالعة راشدة في أسفار الخلود ولوحة الوجود ، أو لم يكفهم أنّا ترحم عليهم جزاء ما صنفوا وألّفوا ؟ إن مِن نكد الدنيا على الحُر أن لا يقرأ ، ومَن لا يذُد عن وقته بحرصه هدم عمره ، وقل لأهل الجهل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين : إما خلود لأسمائنا في الدفاتر أو صعود لأشخاصنا على المنابر ، مع خدمة محابر وإعلان منائر . انتظر فتح الباري ، وعش في ظلال القرآن ، وانزل رياض الصالحين ؛ لتنال بلوغ المرام ، فإن حادي الأرواح هو الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ومِن مبادئ اقتضاء الصراط المستقيم سلوك منهاج السنة ؛ لأنه مدارج السالكين ، إذا حملوا زاد المعاد وكانوا على ميزان الاعتدال وساروا على سير أعلام النبلاء ، وما أجمل طالب العلم لمحلّى بالأخلاق ؛ لأن سيرته إحياء لعلوم الدين ، ومن صعد مراقي الصعود ، هبط الروض المربع إذا لم يخطئ منار السبيل ، والكافي له ربه مِن كل حاسد ، والمغني له مولاه مِن كل جاحد ؛ لأن الشفاء هو البرهان ، وهو الحجة البالغة ، فبداية المجتهد ونهاية المقتصد هو دليل الطالب مِن الوحي ، وأضواء البيان في ذلك هي معالم الطريق ، فإذا عرف العبد ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، وصل إلى ربيع الأبرار وقرة عيون الأخيار ، فوجد حدائق ذات بهجة ، وهتف به لسان الحال : لا تحزن !





تعلم كيف تعشق

عدد الكتب حولك لئلا تملّ ، ونوّع قراءتك واجعل في جيبك وعند رأسك وفي مجلسك وصالون انتظارك وحقيبتك وسيارتك كتبًا حتى تُسعد نفسك وغيرك بالمطالعة ، فإنك بهذا العمل تطرد عنك سحابة الحزن ، وليلَ الهم ، وتنمي فكرك ، وتزيد مِن علمك وفهمك ، إن الذي لا يقرأ رجلٌ بسيط عادي مقلَّد مكرر ، لا جديد عنده ، ولا فائدة لديه ، ولا حلاوة لكلامه .

وعلم أبناءك كيف يعشقون

لو علما أطفالنا القراءة ودرّبناهم على المطالعة كل يوم ، واخترنا لهم ألطف الكتب وأنفعها ؛ لتعلقوا بالمعرفة وانجذبوا إلى الكتاب وتأدبوا بأحسن الآداب وحفظوا وقتهم ، وسلموا مِن الشتات والضياع ونجوا مِن جلساء السوء ورفقاء الباطل ، ونصيحتي لل ابٍ ان يدرّب أبناءه على القراءة ويضع لهم الجوائز ويفتح باب المنافسة ، ويجمع في بيته مكتبة عامرة بأنفع الكتب ، فهذا دليل رقيّ الإنسان وسعيه في أسباب الكمال ، فليس هناك أعظم ممن أدى حق ربّه ، ثم جاهد نفسه في طلب العلم النافع ، وطرد الجهل عن نفسه بمطالعة آثار الأولين ، ثم إنه يجد مِن الأنس والمتعة وحفظ الزمان وزيادة العقل وانشراح الصدر ، ما لم يجده في غرس الأشجار ، وجري الأنهار ، وسكنى القصور والدور .

قال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون

شبكة مشكاة

وقرب معشوقك إليك

ثم تأمل في قول بلقيس { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } ففيه دليل على أن الكتاب أرفع مِن الرسل ، فإن سليمان عنده علماء الإنس والجن ، وعنده مِن العفاريت ما يسبق الريح ، ومع ذلك أرسل كتابًا ؛ لأنه بالعز مرقوم وبالحكمة مختوم والخط فيه شاهد عيان ، والمداد به أعظم برهان ، ثم إن صورة الكتاب تهول الحجاب ؛ لأنه أنبه وأكرم وأشرف وأفخم ، لأنه يحفظ الرسالة في إتقان وإصابة ، ثم إن الكلام المحفوظ في الرأس أبعد عن الضبط مِن المرقوم في القرطاس ، أما ترى أن الله جل اسمه أنزل رسالته في كتاب ؛ لتكون محفوظة بين الأمم والأحزاب ؟ فسليمان لما كان نبيًا ملكًا اختار الكتاب وسيلة لإبلاغ بلقيس دعوته ؛ لأن الصحيفة مهابة ، والحروف جذابة فقد بان لك الآن أن كتابة العلم وتأليفه وتصنيف أبوابه واقتناء أسفاره مِن أنبل أعمال العظماء ومِن أفخم صفات النجباء ، وما ساد مَن ساد إلا بالورق والمداد ، وانظر أي عالم في الدنيا مهما كثر الجمع عنده والحضور لديه فإنه لا يعادل عشر معشار مَن يقرأ كتابه بعد ذهابه وتوسّده في ترابه ، وكم قرأ (صحيح البخاري) مِن بشر كثير وجمع غفير وعلم خطير وشهير مُشير ووزير وأمير ، وهذا (ديوان المتنبي) طُبع حتى ملأ الأدراج وصار الناس في شرائه كالأمواج ، ودونك (كتاب) سيبويه أصبح في البيوت آية واقتناؤه غاية ، وهذه (مقدمة ابن خلدون) لأنها مكتوبة أقيمت لها مراكز عالمية ومنابر دولية ، ورسالة ماركس في أوراق طبقت الآفاق مع ما فيها مِن إلحاد ونفاق وأقول لك لن تجد أشرف ولا أعز ممن رضي بالكتاب عن الأصحاب ، وخلا بالصحف عن هذا الخلف ، فتدرع بدفاترك واحتضن أوراقك وكب بقية المحبرة في المقبرة ، فوالذي رفع الخضراء فسواها وبسط الغبراء فدحاها ، لقد دخلتُ على الملوك وجالستُ العلماء وناظرتُ الأدباء وطارحتُ الشعراء وراسلتُ النجباء وشاجيتُ الشرفاء ، وداخلتُ الأمراء وشرّقتُ إلى جاكرتا وغربتُ إلى لوس أنجلوس ، فما وجدتُ أنفع ولا أفيد ولا أعزّ ولا أشرف مِن صحبة الكتاب ، في عزلة حاسد وحاقد وجاحد وجامد وشامت .

عرفت مَن يقرأ في اليوم مائة صفحة فهل قرأت عشراً ؟!

شبكة مشكاة

وقال عبد الله بن مسلم ابن قتيبة مَن أراد أن يكون عالمًا فليطلب فنًا واحدًا ومَن أراد أن يكون أديبًا فليتفنن في العلوم

واقرأ كتابك

فإنك كلما ، فُتحت أمامك آفاق واسعة مِن المعرفة والتجارب والدراية ، فكل سطر له معنىً وكل كلمة لها رمز ، وما عليك إلا أن تكون قارئًا ذكيًا يوظف المعلومة ، ويجيد تخزين المعرفة في ذاكرة اكتسبت الوعي مِن المران ، وحفظت الفوائد بالمراس افتح كتابًا نافعًا وكأنك فتحت مدينة ، وطالع ديوانًا مفيدًا وكأنك طالعت قارة ، إنما المهم أن تقرأ وأوصيك دائمًا أن تقرأ ولو قبلت نصيحتي لقلت لك : اقرأ .

كيف تحقق مسألة شرعية ؟

تحقيق المسألة يتم بأمور ، هي :

(1) جمع النصوص في المسألة مِن الكتاب والسنة .
(2) النظر في الحديث صحةً وضعفًا .
(3) التأكد مِن النسخ في الآية أو الحديث .
(4) حصر أقوال أهل العلم في المسألة .
(5) النظر في الأقوال والترجيح ، وذلك يمكّنه مِن أصول الفقه .
(6) ذِكر القول الراجح وسبب ترجيحه ولماذا أهملت الأقوال الأخرى .

كيف تخرج حديثًا ؟

إذا أردت تخريج حديث ما ، فلا بد أن تبحث عن مظانه ، ومَن رواه ؟ وهذا يكون بأمور :

(1) إن عرفت مظانه بالاستقراء والنقل فحسن .
(2) وإن لم يحصل ذلك ، فبمعرفة أول الحديث والنظر في الفهارس والمعاجم .
(3) وإن لم يحصل ذلك ، فخذ مادة مِن الحديث وارجع إلى المعجم المفهرس ، إن كان الحديث عند التسعة .
(4) ثم انظر في سند الحديث رجلاً رجلاً بواسطة علم الرجال .
(5) ثم اجمع أقوال أهل العلم في الحديث لتخرج بحكمٍ متأنٍ على الحديث .

قيل لأبي عمرو بن العلاء : هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ، قال : إن كان يحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم

جهد المُقِل خير من عذر المُخِلّ . شبكة مشكاة

الطريق إلى المعشوق

كم هو جميل ذلك الطريق المؤدي إلى عالم الكتب ، فدعني أحلّق معك في رياض تلك الكتب ، فإنَّ أشرف ما يمكن أن نعيش به في الحياة – بعد الإيمان والعمل الصالح – التحصيل وقراءة كتب العلم ، فأهل العلم هم أهل النفع والفائدة .

يا ذكـــيًا والذكـا جـلبابـه   وتقــيًا حـــسُــنت آدابـهُ
قم وصاحب مَن هم أصحابه   لا تقل قد ذهــبت أربــابهُ
كل مِن سار على الدرب وصل

وليست العبرة بكثرة اقتناء الكتب ، فقد تجد عالمًا ليس في بيته سوى عشرة كتب قد هضمهما وفهمها ، وتجد طالبًا عريًا مِن العلم ، في بيته مكتبة هائلة مِن الكتب قد تراكم عليها الغبار ، لا يعرف منها إلا عناوين الكتب . فالعبرة بالمضمون لا بالمظاهر .

واعلم أنه لا يخلو كتاب مِن فائدة فلا تحتقر أي كتاب ، فإنك قد تجد الدر بين القش ، وكم مِن مسألة محققة منقحة في كتيب لا تظفر بها في مجلدات . وأنت مخير في ترتيب مكتبتك : إما على الفنون : القرآن وعلومه والتفسير والحديث وهكذا ... أو على المؤلفين .

وسندخل المكتبة الإسلامية لنقف مع الكتب المشهورة والشروح والمختصرات ، ونعرض بعض الأمثلة ، وبعض النقد الذي لا يسلم منه كتاب مِن كتب البشر .



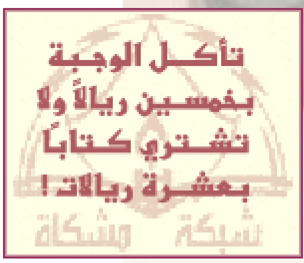
القرآن الكريم أعظم الكتب

الكتاب بالنسبة إلى طالب العلم هو رفيقه في درب الحياة ، وأنيسه في الوحدة وصاحبه الذي لا يخونه ولا يمله ولا يسأمه ولا يضجره . والكتاب أحسن ما يمكن أن تجلس معه ، قال أبو الطيب المتنبي :

أعز مكانٍ في الدنيا سرج سابح وخير جليس في أنام كتابُ

فإذا كان الكتاب جليسك فأبشر ثم أبشر ، خاصةً إذا كان الكتاب الإسلامي النافع المفيد . وأعظم كتاب طرق المعمورة هو كتاب الله عز وجل ، ويحتاج ذكر فضائله إلى دروس ودروس ، ويكفي هذا الكتاب فضلاً أنه معجز وأنه : { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } وقوله تعالى {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} وقوله تعالى { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} وقوله تعالى {الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ} .

ولما كان الكلام في هذه العجالة عن كتب البشر ، فإني أستميحكم عذرًا معلنًا عجزي عن عرض فضائل القرآن ، ثم أحيلكم على كتاب (التبيان في آداب حملة القرآن) للإمام النووي ، وإلى غيره مِن كتب أهل العلم ، ويوم تكون طالب علم فيجب أن يكون القرآن في مكتبتك وتحفظ منه ما تيسر ، وتدبره ، ويكون هو وردك دائمًا ومعلمك وأنيسك وربيع قلبك ، فهو الذي يزيدك إيمانًا وطموحًا .





أولاً : في رياض التفسير

لندخل الآن إلى فن التفسير , هذا العلم الذي أجاد فيه المسلمون وأغزروا فيه من الفوائد وخدموه خدمة بارعة . وهو على قسمين : التفسير بالرواية , والتفسير بالدراية ؛ فالرواية هي النقل والدراية هي النقل . وسنذكر بعض التفسير التي لا يستغني عنه طالب العلم , ثم نذكر جملاً من فوائدها .

_ 1- تفسير ابن جرير الطبري

أعظم تفسير عند المسلمين وهو التفسير الذي جمع فأوعى ومن مميزاته وخصائصه :



أولاً : أنه اعتنى بالتفسير المأثور المنقول عن الرسولp وأصحابه .

ثانيًا : أنه أثبت ما نقل بالسند ولم يأت بكلام بلا خطام ولا زمام فلا تثريب عليه في ذلك

ثالثًا : أنه أتى بلب اللغة العربية واستشهد بالأبيات التي أقرها أهل اللغة من شعر الجاهليين وغيره .

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يضمن العصمة إلا لكتابه فهناك بعض المؤاخذات على هذا التفسير :
أولها : التطويل فقد أطال فيه ومد الكلام وبسط الحديث بشيء يمل وبسبب ذلك أنه يأتي بالسند الطويل ثم يأتي في المتن بكلمة أو ما إلى ذلك . وهذا يستنفد وقتًا طويلاً على طالب العلم .

ثانيها : أنه قد يأتي بروايتين أو ثلاث ثم لا يرجح وطالب العلم يحتاج إلى تحقيق المسائل والترجيح بين الأقوال واعتماد قولٍ واحد يكون عليه مدار العمل .

ثالثها : أنه مر على كثير من الأحاديث الضعيفة ولم ينبه عليها وحق على طالب العلم أن لا يمر بحديث إلا ويبين درجته لتبرأ ذمتَه خاصة من مثل العالم الفذ ابن جرير الطبري – رحمه الله – ويمكن أن يُعتذر له بذكره للسند .

_ 2- تفسير ابن كثير

ذكر عن الشوكاني – كما في البدر الطالع – أنه قال ((ما أعلم تفسيراً أحسن منه فكيف بمثله ؟!)) وذكر عن السيوطي أنه قال ((ما على وجه الأرض أحسن من تفسير ابن كثير)) وهو التفسير المشرق ، ومن مميزاته :

1) أنه تفسير القرآن بالقرآن فيورد الآية ثم الآيات التي تدور حول المعنى بالجملة وهذه منقبة عظيمة .
2) أنه يأتي بالأحاديث النبوية ويسندها إلى الكتب المعتمدة ويكثر الاعتماد على مسند الإمام أحمد ثم على الكتب الستة وغيرها .
3) أورد كلام التابعين ومن بعدهم ونبه على أسمائهم .



<u>ومِن المؤاخذات عليه :</u>

1) أنه وإن كان أنقى الكتب مِن الإسرائيليات ، ورغم أنه حذر منها في أول الكتاب ، إلا أنه وُجد فيه – مع ذلك – بعض الإسرائيليات .
2) أنه في بعض الأحيان لا يستوعب ما نقل في الآية مِن كلام أهل اللغة ، فإن بعض الآيات إذا راجعتها لا تجد إلا كلامًا قليلاً فيها ، رغم أنها تحتاج إلى بسط وتوضيح وإيراد شروح ، حتى تقرب مِن فهم القارئ والسامع وطلب العلم .

وقد بدأ بعض طلبة العلم – فيما أعلم – في تخريج الأحاديث التي تحتاج إلى تخريج ، وتحقيق هذا التفسير العظيم ، وقد رأيت مجلدًا محققًا منه .

_ 3- مختصرات تفسير ابن كثير

اختصره علماء ، منهم نسيب الرفاعي في مختصر جيد ، ولو أنه أبقى على روح الكتاب وعلى كلام السلف ونقولاتهم بألفاظها لكان أفضل .



ومنهم الصابوني وقد أحسن في كثير مِن اختصاره ، لو أنه ترك التدخل في بعض المسائل وأبقاها على أصلها وعى مجمل اعتقاد السلف .

_ 4- تفسير القرطبي

لا بد أن تحفل مكتبتك بهذا التفسير ، قال عنه الذهبي : " ألّف القرطبي تفسيرًا فأتى فيه بكل عجيب " .

<u>ومِن مميزاته :</u>

1) أنه يجمع آيات وأحاديث الأحكام وأقوال أهل العلم في مسائل الأحكام ، ثم يستخلص منها الراجح عنده فهو كتاب فقه وأحكام قبل أن يكون كتاب تفسير .
2) أنه حشد حشدًا هائلاً مِن الأدلة والإيرادات ، فأتى – كما قال الذهبي – بكل عجيب .
3) أنه لم ينسَ جانب اللغة والشعر والأدب فأتى بالشواهد اللغوية كما فعل ابن جرير .

<u>ومِن مثالبه :</u>

1) أنه أتى بأحاديث موضوعة معروفة ، وكان الواجب عليه أن ينبه عليها خاصةً وهو محدّث ، فلا تبرأ ذمته بإيراد الحديث بلا تنبيه .
2) أنه قد يؤول في بعض الصفات كما فعل في بعض المواطن ، بخلاف منهج أهل السنة الذين يمرونها كما جاءت مِن غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، فليُتنبه لذلك .

_ 5- تفسير الكشاف للزمخشري

الزمخشري عالم لغوي جهبذ فذ ، وهو حجة في اللغة ، لكنه معتزلي الرأي ، معتزلي الفكر ، معتزلي المعتقد ، وقد شنع على أهل السنة والجماعة فشنعوا عليه وردوا عليه ، وقد كتب قصيدة في أهل السنة والجماعة أزرى عليهم فيها ، وكان مِن أبياتها :

لَجماعة سموا هواهم سنةً   لجماعة حمرٌ لعمري موكفةْ !

فردوا عليه بما يقارب ست قصائد سحقت قصيدته ، فلم تبقَ في ساحته عوجًا ولا أمتًا . منها قول البليدي :

هل نحن مِن أهل الهــوى أو أنتم   ومَـن الـذي مـنا حمير موكفةْ
اعكسْ تصبْ فالوصف فيكم ظاهرٌ   كالشمس فارجع عن مقال الزخرفةْ
يكفيك فـي ردي عليك بـأننا   نحـتـج بالآيـات لا بالسفسـة



ومِن لطائف الحديث عن الزمخشري أنه كان في طفولته يربط طائرًا في بيته ، فأتى الطائر فاقتطع فنشبت رجله فانقطعت مع الحبل وذهب الطائر برجل واحدة ، قالت أم الزمخشري له قطع الله رجلك كما قطعت رجل هذا الطائر فوقع في الثلج وهو في طريقه إلى مكة فتجمدت رجله ، فبُترت مِن فخذه فأصبح برجل واحدة ، ويُعرف بجار الله لمجاورته البيت الحرام . وهذا مِن استطراد الحديث .

مميزات كتابه :

أنه كتاب حجةٌ في اللغة ، وللزمخشري فيه إيرادات ونكت عجيبة في اللغة واللطائف وهو صاحب إشراقات في باب البديع والبيان .



ومِن مثالبه :

1) بضاعة الزمخشري في الحديث مزجاة ، وليس بحجة فيها .
2) يجب أن يتنبه له في باب المعتقد ؛ لأنه معتزلي العقيدة – كما سبق - .
3) لم يوفِ بعض الآيات حقها مِن البسط والبيان كما فعل غيره كالقرطبي .

_ 6- تفسير الرازي

هذا التفسير قيل عنه : فيه كل شيء إلا التفسير ! ، وهذه الكلمة لا تقبل على الإطلاق ، بل فيه تفسير كثير ولا يخلو مِن فوائد . لكن يؤخذ عليه :

1) أنه جمع علم الكيمياء والفيزياء والأحياء والجغرافيا والتاريخ والمنطق وعلم الكلام ، فحشا بها كتابه حتى جعل الفاتحة في مجلد كامل .
2) الرجل ليس بحجة في الحديث النبوي وقد أورد حديث : القمر والشمس يكوران كالثورين ويوضعان في جهنم ؛ وهذا حديث لا يساوي فلسًا واحدًا وليس بصحيح كما أن الرجل منحرف عن منهج أهل السنة والجماعة في باب الاعتقاد ويعد مِن أئمة الأشعرية وغلاتهم .
3) أن الرجل معجب بعلم الكلام ، ويعقد معانيَ ودلالات القرآن تعقيدًا فلسفيًا ، وقد رد عليه ابن تيمية في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) .
4) أنه ابتعد عن روح القرآن فلم يأتِ بنقل ، ولم يجمع الآيات التي في المعنى الواحد كما فعل ابن كثير وترك كلام لصحابة والتابعين فلم يورده إلا نادرًا .

وقد مات قبل أن يكمل كتابه ، فأكمله أحد تلاميذه وسار فيه على طريقة شيخه .

_ فتح القدير للشوكاني

الشوكاني مِن علماء أهل السنة والجماعة ، ومعتقده هو معتقد السلف في الجملة ، وهو عالم فذ متبحر في العلوم ، ومَن أراد أن يعرف تبحره فليقرأ رسالته (أدب الطلب ومنتهى الأرب) ؛ يقول – رحمه الله - :
إنني في بداية شبابي قرأت بيتين لشريف الرضي في طلب العلم يقول فيهما :

أقسمت أن أوردهـا حـرةً   وقـاحة تحت غــلام وقاحْ
إما فتىً نال المنى فاشـتفى   أو فارسًا ذاق الردى فاستراحْ

وهذا البيتان في طلب الملك والإمارة ، أما الشوكاني فالعلم عنده أفضل ، وقد قلت معارضًا هذين البيتين :

إذا سألت الله في كل ما   أمّلته نلتَ المنى والنجاحْ
بهمةٍ تُخرج ماء الصفا   وعـزمةٍ ما شابها قول آحْ



وبدأ الشوكاني يطلب العلم حتى برع فيه وصنف المصنفات العظيمة التي مِن أجلها : نيل الأوطار ، وفتح القدير :

<u>ومِن مميزات تفسيره :</u>



1) أنه فسر القرآن بالدراية والرواية .
2) أنه استوعب كلام النحاة حتى يُخيل إليك وأنت تقرأه أنك تقرأ في كتب لسيبويه أو للزجاج أو لغيرهما مِن علماء اللغة والنحو .
3) أنه يأتي بعلم المأثور بعدما ينتهي مِن تفسير الآيات ، فيقول : و أخرج فلان ....

<u>وأما المآخذ على تفسيره فمنها :</u>

1) أنه شحن الكتاب باللغة والصرف حتى أصبح مملاً ، وكأنه أصبح كتاب نحو وتصريف وحال وتمييز ومبتدأ وخبر ، وهذا إنما يؤخذ بقدر الحاجة .
2) أنه لم يجمع الآيات التي في المعنى الواحد ليفسر بعضها بعضًا ، كما فعل ابن كثير .
3) أنه لم يعتمد على الصحاح مِن الأحاديث ، وإنما يذكر الصحيح والضعيف .
4) أنه أورد الأحاديث بلا خطام ولا زمام مِن كتب ابن مردويه والطبراني ومَن على شاكلتهما ، - وكتب هؤلاء مظنة الأحاديث الضعيفة – ثم جعلها في كتابه ولم ينبه عليها .

8 – تفسير أضواء البيان

وهو للعالم الأريب الكبير محمد الأمين الشنقيطي ، كتابه هذا فذّ بين كتب التفسير .

<u>مميزات تفسيره :</u>

العقلية المتوقدة ، والاستنباط اللطيف وتحقيق المسائل خاصةً في سورة الحج في مجلد الحج ، فقد أبدع فيه ، والرجل نظار مِن الدرجة الأولى ، وعلاّمة بحر فهّامة ، حافظ اللغة ، وهو مِن أئمة أهل السنة ، وقد أبدع في بيان معتقد أهل السنة والرد على أهل البدع في مواضع مِن كتابه .

<u>المآخذ على تفسيره :</u>

1) أن فيه عشرات الآيات والمقاطع لم يفسرها .
2) أنه أكثر فيه مِن أصول الفقه والتعقيدات الأصولية ، وكأن كتابه كتاب أصول الفقه .

ثانيًا : في حضرة النبي ρ

الحديث النبوي هو الفن العظيم الذي أبدع فيه المسلمون , ووضعوا له أسسًا وقيمًا لم توجد في غيره من العلوم , وهو العلم الذي يفتخر به كل مسلم ويعتز به بعد القرآن الكريم , ومن كتب الحديث التي ينبغي أن تكون في مكتبة طالب العلم ما يلي :

_ 1- صحيح البخاري

والإمام البخاري ـ رحمه الله ـ قد صنف كتابه وجرده للصحيح فحسب , وكان ذلك بتوجيه من إسحاق بن راهوية ـ رحمه الله ـ .

مكانة صحيح البخاري وتبويبه وفوائده :

أما مكانته : فهو في المرتبة الأولى ـ بعد كتاب الله عز وجل ـ ؛ كما قال ابن تيمية في المجلد الأول من الفتاوى .

وأما تبويبه : فبديع ؛ وقد جعله على ثلاثة أصناف : فمرة يأتي بالباب من لفظ الحديث , ومرة يأتي بالباب استنباطًا من عنده , ومره يأتي بالباب استنباطًا مظنونًا وليس تأصيلاً في الحديث , حتى إن كثيرًا من الشراح يتوقف متسائلاً : ما مناسبة الباب ؟ وما مناسبة الترجمة للحديث ؟ والباب للمتن ؟.

وأما فوائده فنها :

1) أنه يكرر الحديث فيكثر مخرجيه من المشايخ والأسانيد .
2) أنه يأتي بالمعلقات كثيرًا فيشحن الحديث بعلمه .
3) أنه يبوب فيستنبط لك ؛ لأنه فقيه .

ويتميز صحيح البخاري بثلاثة مزايا :

1) الصحة المتناهية والشرط القوي في إيراد الحديث , فليس في الصحيح البخاري حديث ضعيف , ولا يلتفت لقول ابن حزم ـرحمه الله ـ عن حديث الغناء ((ليكونن أقوام من أمتي يستحلون ..)) الحديث بأنه حديث ضعيف ؛ لأنه منقطع بين البخاري وهشام بن عمار , وقد رد المحدثون بأن الحديث موصول .

وقد انتقد الإمام أبو الحسن الدار قطني البخاري ولكن لم يصح نقده , وكان ــ رحمه الله ــ حسن النية , والله أعلم .

أما هؤلاء المحدثون من أمثال أبو رية العميل للمستشرقين , ومن أمثال المستشرق جورج زهير المجري , فهؤلاء معروفة نواياهم الخبيثة , وقد رد عليهم العلماء في كتبهم مثل كتاب : (الأنوار الكاشفة لظلمات أبي رية) للمعلمي ، و (الدفاع عن أبي هريرة) لعبد المنعم الصالح .

2) كثرة الفوائد فيه ، مِن التعليقات والاستنباطات وكلام الصحابة والتابعين وأتباع التابعين .

3) جودة التبويب والترتيب فإنه دبجه ووشحه بتبويب وترتيب عجيبين .

ومِن الملاحظات على صحيح البخاري :

1) هناك بعض التعليقات تحتاج إلى خدمة ، وقد خدمها ابن حجر – رحمه الله - .

2) هناك تكرار للحديث في أكثر مِن موضع ، حتى إنه كرر حديثًا واحدًا ما يقارب (37) مرة . وطالب العلم ربما يحبذ أن يأتي الحديث في موضع واحد .

3) البحث في صحيح البخاري عن الحديث مُضنٍ وشاق ، وذلك لأنه قد يذكره في غير مظانه ، فإنه – رحمه الله – يستنبط مِن الحديث الواحد فوائد لا يتفطن لها كثير مِن طلاب العلم ، فإنك ربما تبحث عن الحديث في باب النكاح فتجده في الغزوات ، وربما تبحث عنه في الغزوات فتجده ف التفسير ! .

مختصرات صحيح البخاري :

1) اختصره الزبيدي في كتاب (التجريد الصريح) ؛ وهو مجلد لطيف يقع فيما يقارب خمسمائة صفحة ، وحبذا أن يكون هذا المختصر عند طلبة العلم ون يكرروا قراءته عدة مرات . وطريقة الزبيدي في هذا الكتاب : أنه حذف الأسانيد والمكررات والأبواب وأبقى اسم الصحابي ومتن الحديث ، وإذا كان في الحديث زيادة أشار إليها . فجزاه الله خيرًا على هذا العمل المفيد .

2) اختصره الألباني وقد أجاد الاختصار ، وكان – رحمه الله – يشير إلى الأبواب والمواطن ويذكر جميع روايات الحديث الواحد ، ولذلك فقد كبر حجم مختصره .

مقارنة بين صحيح البخاري وصحيح مسلم

صحيح البخاري يمتاز على صحيح مسلم بعدة أمور ، منها :

الأمر الأول : أنه أصح منه ، وهو قول الجمهور ، ولم يخالف في ذلك إلا أبو علي النيسابوري ، والمغاربة ، وهذا خطأ ، بل قول الجمهور : أن (صحيح البخاري) مقدم وهو الذي ذكره النووي وابن تيمية والذهبي وابن كثير والحفاظ جملةً وتفصيلاً .

الأمر الثاني : (صحيح البخاري) أكثر فائدة مِن (صحيح مسلم) ، ففيه معلقات وموقوفات وآيات وملحٌ مِن ملح العلم وفوائد حديثية وفقهية .

الأمر الثالث : (صحيح البخاري) يمتاز بالتبويب وجودة الاستنباط في الأبواب .

وتبويب البخاري على ثلاثة أقسام :

1- فمرة يأتي بالباب مِن الحديث مِن متن الحديث .
2- ومرة يأتي بحديث لم يصح على شرطه فيجعله بابًا ليصيد عصفورين بحجر ، فهو يجعل الحديث الضعيف بابًا ، لكي يقال له : كيف أخذته وهو ضعيف ؟ فيقول : هو مِن بابي وليس مِن مسندي ، ولا مِن متن الحديث ! .
3- أو أن يستنبط مِن الحديث استنباطًا فيجعله بابًا .

واستنباطه : مذهل عجيب ، حتى تحير كثير مِن أهل العلم في استنباطاته وتوقفوا عند بعض الأبواب ، وأجهدوا أنفسهم كثيرًا لمعرفة قصده – رحمه الله - :

فمثلاً عندما أراد أن يستدل على جواز الصلاة إلى النار – وهذا يخالف فيه بعض الفقهاء – قال : بسم الله الرحمن الرحيم (باب) الصلاة إلى النار ، ثم ساق حديثه ρ في صلاة الكسوف ، قال ρ (عرضت لي النار في عرض هذا الحائط) ، أي أنه صلى إليها ρ ولم تبطل صلاته ، وهذا استنباط رائع جداً .

الأمر الرابع : يمتاز (صحيح البخاري) على (صحيح مسلم) أيضًا بأنه يكرر الحديث ، فقد كرر كثيرًا حديثًا مِن الأحاديث سبعًا وثلاثين مرة ؛ وهذا بلا شك يساعد في الحفظ . لكن الإشكال في تعدد أماكن الحديث – كما أسلفت - .

كرر العلم يا جميل المحيا وتبره فالمكـــرر أحلى

2- صحيح مسلم

وهو في المرتبة الثانية بعد صحيح البخاري ، هذا ما عليه الجمهور ، إلا أن أبا علي النيسابوري والمغاربة يقدمون صحيح مسلم على صحيح البخاري . والرأي الأول هو الصحيح – كما سبق - .

مميزات صحيح مسلم :

1) أنه يجمع الأحاديث في باب واحد ، فيعفيك مِن مغبة التكرار ويسهل عليك الرجوع إلى الحديث حيثما بحثت عنه .
2) أنه يجمع الزوائد بألفاظها .
3) أنه يأتي بأحاديث وشواهد واعتبارات مساندة للحديث ، ولكن هذه الشواهد والاعتبارات ليست على شرطه في الأصول .

ويمتاز (صحيح مسلم) على (صحيح البخاري) بثلاثة أمور :

الأول : أن مسلمًا يجمع لك الحديث بطرقه كلها في مكان واحد ، فأحاديث الطهارة في كتاب الطهارة وأحاديث الصلاة في كتاب الصلاة وهذه ميزة تريحك في البحث ، أما البخاري فإنه لعظيم فقهه ولقوة استنباطه تجده يفرق الحديث في مواضع ويضع الحديث في الباب حيث يرى أن الاستدلال به فيه أقوى وأبلغ فيتحير طالب العلم ؛ وبخاصة حديث العهد في التعامل مع صحيح البخاري .

الأمر الثاني : ميزة (مسلم) أنه يأتي بالزيادات بألفاظها ، أما البخاري فيظهر أنه يروي بالمعنى ، بخلاف مسلم الذي يقيد اللفظ ويأتي به ويحرص عليه .

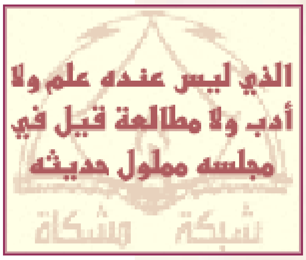
الأمر الثالث : أن مسلمًا يأتي بالشواهد والاعتبارات بعد الحديث . ومن التساؤلات المهمة : هل في صحيح مسلم أحاديث ضعيفة ؟

قال الدارقطني : غيه أحاديث ضعيفة ، وقد تتبع – رحمه الله – (الشيخين) في هذه المسألة في كتاب أسماه (الإلزامات والتتبع) .

ما انتقد به صحيح مسلم :

انتقده بعض العلماء ومنهم : أبو الحسن الدارقطني وضعّف فيه ما يقارب ثمانين حديثًا ، والحق أن صحيح مسلم ليس فيه كل هذا العدد مِن الأحاديث الضعيفة ، وقد ذكر ابن تيمية وغيره أن الأحاديث الضعيفة فيه ثلاثة :

الأول : حديث أبي موسى : ((ساعة الجمعة عندما يجلس الإمام على المنبر إلى أن تقضى الصلاة)) ، وهذا الحديث منقطع كما ذكره الدارقطني وابن حجر وابن تيمية . والصحيح أن ساعة الاستجابة هي آخر ساعة مِن يوم الجمعة كما في الصحيح .



والثاني : ((خلق الله التربة يوم السبت)) وعَدّ الأيام فصارت سبعة ، والله سبحانه ذكر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام . فقالوا : هذا وهم أخذه أبو هريرة مِن كعب الأحبار .

والثالث : عن ابن عباس ، في الدباغ . وقد ذكر ابن تيمية هذه الأحاديث في المجلد الثامن عشر مِن الفتاوى .



وادعى ابن حزم الظاهري أن في صحيح مسلم حديثًا موضوعًا وهو حديث أبي سفيان أنه قال للرسول : ((يا رسول الله أريد منك ثلاثًا : أن تعطيني إمرة وأن تجعل معاوية كاتبًا لك وأن أجدد لك وأزوجك رملة)) والإشكال في هذا أن (رملة) تزوجها ρ قبل أن يسلم أبو سفيان .

ولكن يحمل هذا على أنه ليس موضوعًا وإنما فيه وهم مِن الرواة أو يحمل على دلالة الألفاظ وأن يقال : بل الصحيح أن الرسول ρ جدد له هذا – وتجدد العقد لا بأس به وهو وارد – وجعل معاوية كاتبًا وأعطاه إمرة .

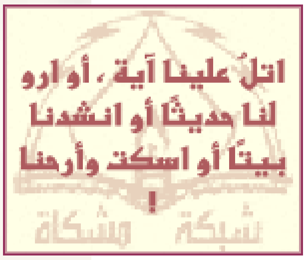
_ 3- جامع الترمذي

وهو يقع في المرتبة الرابعة وبعضهم يجعله في الخامسة ، لكن بدأت به لكثرة فوائده ، حتى قال إسماعيل الأنصاري شيخ الإسلام الهروي صاحب (منازل السائرين) : ((الترمذي أفيد مِن البخاري ومسلم ؛ لأن طالب العلم يقع على الفائدة عند الترمذي قبل أن يقع عليها عن البخاري أو مسلم)) .

وقال الذهبي في ترجمته للترمذي في (سير أعلام النبلاء) : إنه ضعيف النفس في التضعيف .

مميزات سنن الترمذي :

1) يعقب على الحديث بالتصحيح والتضعيف ، فيقول : حديث حسن صحيح ، حديث حسن غريب ، حديث غريب ، وهكذا .
2) يذكر الصحابة الذين رووا الحديث ، فيقول : وهو مِن حديث فلان وفي الباب عن أبيّ وأبي أيوب وحذيفة وأسماء وابن عباس وابن عمر وهذه فائدة جليلة تطلعنا مِن روى الحديث مِن الصحابة .
3) أنه قد يسمى مَن كُني أو مَن لم يُسمَ في السند فيقول : أبو فلان اسمه كذا وكذا ، وقد ينسبه فيقول : هذا البجلي ،أو الغطفاني أو الفزازي.
4) أنه يذكر أقوال أهل العلم ، فيقول : وهو قول مالك وأحمد وابن المبارك وإسحاق ويذكر إذا كان ذلك إجماعًا أو غير ذلك .
5) أنه ربما ذكر الضعف ثم قال : لا نعرفه إلا مِن حديث فلان ، فإذا ذكر ذلك فقد نبه على أن سبب الضعف هو ذلك المذكور .



<u>وأما المآخذ على سنن الترمذي فأبرزها :</u>

1) تساهله في ذكر بعض الأحاديث التي عدها بعض العلماء مِن باب الموضوع والضعيف ، وذكر له ابن الجوزي أحاديث موضوعة في كتابه (الموضوعات) وكذلك ذكر له بعضهم أحاديث ضعيفة . ولكن لا يُسلَّم لهم في بعض ما ذكروا مِن الأحاديث .
2) تصحيحه وتحسينه لبعض الأحاديث الضعيفة حتى قال النووي : ((لا بد أن يُتابع الترمذي على تصحيحه وتحسينه)) .
3) أنه ربما ذكر جملة مِن الحديث وترك باقيه ، والأولى أن يورد الحديث كله ليكون أبرك وأنفع وأحسن

ولكن حسنات هذا الإمام الجليل أكثر وأكثر ، فلقد كان مِن العبّاد الكبار حتى أنه بكى مِن خشية الله حتى عمي ، رحمه الله رحمة واسعة .



_ 4- سنن أبي داوود

قال بعض أهل العلم : ((أصبح كتاب أبي داوود حكمًا بين أهل الإسلام وفيصلاً في مواطن الخصام ، إليه يتحاكم المتحاكمون وبحكمه يرضى المنصفون)) .
وممن اختصره : المنذري في مختصر متداول ، وابن القيم في تهذيبه ، وكذلك صنف الألباني – رحمه الله – صحيح أبي داوود وضعيف أبي داوود .

<u>مميزات سنن أبي داوود والمآخذ عليها :</u>

مِن مميزاتها : أنها جمعت أحاديث الأحكام ؛ قال عبد المؤمن بن علي الحاكم المغربي : ((أصولنا ثلاثة : القرآن وسنن أبي داوود وهذا السيف)) .
وهذا الحاكم هو الذي يقول فيه الشاعر :
ما هزّ عطفيه بين البيض والأسلِ   مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فكتاب سنن أبي داوود جمع أحاديث الأحكام والزيادات جمعًا عجيبًا حتى قال الغزالي : ((هو كتاب المجتهد ومَن أراد أن يجتهد فعليه أن يستحضر سنن أبي داوود)) وقالوا : أُلين الحديث لأبي داوود كما أُلين الحديد لداوود عليه السلام .



وكان أبو داوود – رحمه الله – مِن العباد الزهاد الكبار ، وهو مِن تلاميذ الإمام أحمد وأشبه الناس به ، وقد روى عنه الإمام أحمد حديثًا واحدًا هو حديث العقيقة فكان ذلك شرفًا للتلميذ .
وربما يؤخذ على سنن أبي داوود بعض الأحاديث الضعيفة التي وردها – رحمه الله – وهذا لا يسلم منه بشر .

_ 5- سنن النسائي

للنسائي كتابان في السنن : السنن الكبرى والصغرى ، والكبر طُبعت حديثًا وقد حققها مجموعة مِن طلاب العلم في رسائل ماجستير ، أما الصغرى وهي المسماة بالمجتبى ، فهي أصح مِن سنن أبي داوود والترمذي وابن ماجه . وتقع بعد البخاري ومسلم مباشرة وشرطه فيها قوي حتى قال بعضهم : هو أصحُّ شرطًا مِن البخاري ، وهذا قول مبالغ فيه .
وسنن النسائي مِن أفقر الكتب شروحًا وعليه تعليق للسيوطي والسندي لكن يحتاج إلى شرح .

_ 6- سنن ابن ماجة

وهي أضعف الكتب الستة ، ولكن له مكانة لا تجهل عن أهل السنة . وقد أتى بأحاديث بلغت حد الوضع مثل حدي (قوين وفضلها) وغيره . وقد روى أحاديث مرفوعة والصحيح أنها موقوفة مثل حديث ((فقيه واحد أشد على الشيطان مِن ألف عابد)) وهذا كلام ابن عباس . وكذلك حديث : ((إن مِن الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر)) وهو مِن كلام أنس وفير ذلك .
حتى إن بعض أهل العلم لم يعده السادس مِن بين الكتب الستة ، وإنما جعل (الموطأ)السادس كابن الأثير . وبعضهم عدّ الدارمي السادس .

_ 7- مسند الإمام أحمد

وهو كما يقال :حدث عن البحر ولا حرج .
وهذا الكتاب لا يفوته شيء من الكتب الستة إلا نادرًا, قال الشيخ أحمد شاكر ــ رحمه الله ـ : ((لا أعلم أحدًا حفظه إلا ما يكون من ابن تيمية أو ابن القيم أو ابن كثير)).



وأنا أرشد إلى اقتناء هذا الكتاب والصبر على قراءته من أوله إلى آخره , حتى يتصور قارئه روح الإسلام وعظمته وسيرة نبي الإسلام عليه السلام .
ومسند الإمام أحمد فيه الصحيح وهو أكثره , وفيه الحسن , وفيه الضعيف , لكن ليس فيه بحمد الله موضوع كما قال ابن تيمية (في المجلد الثامن عشر من الفتوى). ففيه روايات ضعيفة عن ابن لهيعة , وقيس ابن الربيع , وغيرهما , وقد يوجد فيه جمله أو حديث وهم فيه راويه. لكن بحمد الله ليس فيه موضوع , وقد دفع ابن حجر ما اتهم به المسند في اثنين وثلاثين أو ثلاثة وثلاثين حديثًا وذلك في كتابه (القول المسدد في الذب عن مسند أحمد) .



_ 8- موطأ الإمام مالك

وهو ما ألف في الصحيح , قال الشافعي : "ما تحت أديم السماء أحسن من موطأ مالك" .
<u>ويلاحظ على الموطأ أمران :</u>
الأول :أنه بديع , خاصة في شرطه القوي , وفي إيراده آثار الصحابة وكلام الإمام مالك . لكن الحديث المرفوع إلى النبي ρ فيه قليل , يعني ما يقارب خمسمائة حديث .
الثاني : أنه يحتاج إلى تخريج للآثار التي فيه , وقد خدمه ابن عبد البر ــ رحمه الله ــ في (التمهيد) فأتى بالعجب العجاب فوصل المقطوعات وذكر الموقوفات والمرفوعات فجزاه الله خير الجزاء .

_ 9- سنن البيهقي

وهو من أعظم ما ألف في الأحكام ؛ قال الذهبي في ترجمة ابن حزم : ((من كان عنده في بيته أربعة كتب ثم أدمن النظر فيها فهو العلم حقًا : المحلى لابن حزم , والمغني للحنابلة , والتمهيد لابن عبد البر , وسنن البيهقي)) .
وسنن البيهقي فيها كثير من الأحاديث الضعيفة فليتنبه لها , وقد حاول الذهبي أن يختصر سنن البيهقي فكتب فيها مجلدين ولم يكملها .

_ 10- جامع الأصول

جامع الأصول من الكتب التي أرشد طالب العلم إليها بعد كتاب الله , وهو من ألطف وأحسن ما ألف , قال ياقوت الحموي : "أقطع قطعًا أنه لم يؤلف مثله " . وقد جمع ابن الأثير ــ وهو من علماء القرن السادس ــ في كتابه هذا صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وموطأ مالك , وحذف الأسانيد

والمكررات , ثم ذكر من خرج الحديث , وشرح الغريب . والكتاب مطبوع في أحد عشر مجلداً , وقد حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ عبد القادر الأرنؤوط .

ومن المآخذ عليه :

1) أنه رتبه على حروف الهجاء , وهذا أمر شاق ؛ فإن التأليف على الأبواب أحسن .
2) أنه ذكر الروايات , ولكن أهمل بعضها .
3) أنه غفل عن بعض الأحاديث التي عند الستة , فلم يوردها في جامع الأصول .

_ 11- مجمع الزوائد

وهو مِن الكتب الحديثة في الساحة الإسلامية التي جمع زوائد مسند الإمام أحمد وأبي يعلي والبزار والمعاجم الثلاثة للطبراني ، وقد تكلم في أحاديثه الهيثمي لكن كلامه فيه تساهل ، يقول : ورجاله ثقات ، وهذا لا يعني الصحة فإنه قد يكون فيه انقطاع في السند ، والكتاب محتاج إلى تحقيق .



_ 12- صحيح الجامع الصغير

جزى الله الشيخ الألباني – رحمه الله – محدث العصر خيرًا على كتابه الفذ الممتع (صحيح الجامع) فقد شفى وكفى ، وهذا الكتاب أصبح اليوم سميري ومحدثي وصقيل ذهني ورفيقي الخاص بعد القرآن ، لأنه صحيح إلا ما ندر ، ثم إنه جمع الصحيح مِن ثلاثين مصنفًا أو أكثر ، وهو مرتب على حروف المعجم وهذا أسهل طرق لكشف الحديث ، ويوم تطالع هذا المصنف لا تمل أبدًا ؛ لأنه ينتقل بك مِن موضوع إلى آخر ومِن قضية إلى أخرى حتى كأنك في حديقة متنوعة الألوان والطعوم والأشكال ، وهو باختصار يجمع لك ما يحتاجه كل مسلم في دنياه وأخراه ، وهذا أجلّ كتاب عندي للعلامة الألباني وهو زبدة مؤلفاته وتاج مصنفاته مع صغر حجمه .



_ 13- غريب الحديث

أحيانًا تصادفك كلمة في الحديث ، وتكون كالإبرة في وسط الجدار لا تهتدي لمعناها ، فحينئذ لا يكون أمامك محيص مِن الرجوع لكتب غريب الحديث لتتعرف على معناها . ومِن كتب الغريب :
(غريب الحديث) لابن قتيبة وقد ذكر فيه حوالي ثلث الغريب . وكذلك لأبي عبيدة معمر بن المثنى كتاب في الغريب وهو متقدم في الزمن على ابن قتيبة وكذلك لأبي عبيدة القاسم بن سلام كتاب (غريب الحديث) وهو أحسن ما كتب في الغريب . وكتاب (غريب الحديث) لإبراهيم الحربي ، و (غريب الحديث) للخطابي وكلاهما عجيب ، وجمع الكل – أو حاول – كتب (النهاية في غريب الحديث) لابن الأثير ، وللزمخشري كتاب (الفائق) في الغريب ، وكلها مطبوعة ، وأحسنها عندي النهاية لابن الأثير .

_ 14- المصطلح

علم المصطلح علم وسيلة وليس مقصدًا أو غاية وإنما هو طريق إلى معرفة الحديث ، ومِن أهم ما كتب في هذا الباب (مقدمة ابن الصلاح) وقد لاقت قبولاً تامًا وشرحت واختصرت ولابن حجر نكات وتعليقات طيبة على ابن الصلاح وله شرح كذلك . ومِن الكتب في هذا افن (الباعث الحثيث) لابن كثير وهو مِن أحسن الكتب ويرشح للقراءة .
ومنه كذلك كتاب (نخبة الفكر) وشرحه (نزهة النظر) وكلاهما لابن حجر ، ومنها كذلك (ألفية العراقي) للمنتهي في هذا العلم والمتبحر في هذا الفن وعليها شرح (فتح المغيث) للسخاوي وهو مِن أحسن ما كتب وهو في ثلاثة مجلدات . والسيوطي أيضًا ألفية في المصطلح لكن ألفية العراقي أحسن وأجود .

15- الأحاديث المشتهرة والموضوعات

مِن الكتب التي تبين الأحاديث الموضوعة كتاب (الموضوعات) لابن الجوزي ، ويقع في أربعة أجزاء في مجلدين ، وقد استوعب كثيرًا مِن الأحاديث الموضوعة لكنه توسع في ذلك جعل بعض الأحاديث الحسنة والضعيفة مِن باب الموضوع . والكتاب يعطي القارئ فيه دربة في هذا الفن ، وهو عمدة كثير مِن العلماء حتى كان يعتمد عليه ابن تيمية ، وحينما تكلم عن ابن الجوزي قال : هو صاحب فنون الحديث .
وأيضًا مِن هذه الكتب كتاب (الأسرار المرفوعة في لأخبار الموضوعة) لملا علي القارئ ، وقد أورد فيه كثيرًا مِن الأحاديث الموضوعة والفوائد الجمة .
وكتاب الشوكاني (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) وقد استوعب ما مرّ وأجاد كل الإجادة ، وأيضًا كتاب (كشف الخفاء ومزيل الالتباس فيما اشتهر على ألسنة الناس) للعلجوني ، فإذا كان الحديث مشتهرًا عند الناس فإنه يذكره ويبين درجته إن كان صحيحًا أو حسنًا أو ضعيفًا ، وهناك أيضًا كتاب (تمييز الطيب مِن الخبيث) للأثري ، وكتاب المقاصد الحسنة للسخاوي ، وهو أفضل هذه الكتب .



ثالثًا : مع الفقه والفقهاء

1- المغني لابن قدامة

هذا كتاب المغني في الفقه لابن قدامة فهو الشهد المصفى والعلم المفرد في بابه ، فقد عرفته وعرفت غيره فبان فضله وظهرت مزيته ، فهو عندي المرجع الأول في الفقه بلا منازع وهو كتاب الفتيا والفقه المغني مع تقوى صاحبه وذكائه المفرط وسعة علمه وبعده عن النيل مِن الأئمة والحط مِن قدر العلماء ، ثم إنه مرتب مبوب ، ناصع العبارة ، عذب الإيراد .



وهذا الكتاب هو المنتهى لمن أراد أن يتفقه خاصةً في فقه الحنابلة ، بل في الفقه مطلقًا حتى قال بعضهم : لا نعلم في كتب الفقه مثل المغني ، وصدق فإذا كان هذا الكتاب مكتبتك فاعتمد عليه – بعد الله – في الفتيا والمسائل .

ويتميز المغني بـ :

1) نقل كلام العلماء – في المسألة- مِن المتقدمين وإلى عصره ، وخاصة المشهورين .
2) يورد الأحاديث المشهورة في المسألة .
3) يوظف أصول الفقه لخدمة كتابه ، ويستخدمها استخدام خبير .

ومَن المآخذ عليه :

1) عدم القيام بتصحيح الحديث أو تضعيفه كما يفعل أهل العلم مِن النقاد ، وهذا أعظم مأخذ عليه .
2) أنه قد يرجع بعض الأقوال اتباعًا لمذهب الحنابلة فليتنبه لذلك .

2- المجموع للنووي

وهو مِن أعظم كتب الفقه ، قال ابن كثير في ترجمة النووي : " لا أعرف في كتب الفقه أحسن منه على أنه محتاج إلى أشياء كثيرة تزاد فيه وتضاف إليه " .

ومِن مميزاته :

1) أنه يحكم على الحديث ويتكلم عليه كلام محدثين جهابذة .
2) أنه يستوعب القول في المسألة .
3) أنه قد يأتي باللغويات وأقوال الشعراء في اللفظة .

ومِن المآخذ عليه :

1) أنه يورد أقوال بعض العلماء مِن صغار الشافعية كرأي البغداديين والخراسانيين ، وهي أقوال في مسائل نظرية وفرعيات تثقل طالب العلم .
2) أنه اقتضب في شرح مسائل تحتاج إلى كثير مِن الاستطراد ، ولكنه مع ذلك قد يأتي بالعجب العجاب عند شرحه للحديث كما في شرحه لحديث القلتين في المجلد الأول .

فليت قوة النووي في الحديث جعلها لصاحب المغني ، وليت بسط المغني وأصوله وتنظيره جعله لصاحب المجموع ، إذن لكان الكمال ، ولكن أبى الله إلا أن يكون الكمال لكتابه . ولم يتم النووي هذا الكتاب ؛ لأنه توفي بعد أن وصل إلى باب الربا .

_ 3- المحلى لابن حزم



سمعت مَن يحذر طلبة العلم مِن القراءة في (المحلى) لابن حزم فحملت هذا التحذير على أحد سببين :

الأول : أن هذا المحذّر مقلِّد تشبع بالتقليد لا يرى الخروج على المذهب طرفة عين وابن حزم في نظره عدو لهذا النهج .

والثاني : أن هذا المحذّر ما قرأ (المحلى) وما مرّ عليه .

صحيح أن المحلى فيه أمور لا يوافق عليها القياس والتأويل في الصفات ، وكذلك النقد المرير للعلماء وبعض المسائل . لكن أين هذا المحذّر مِن الكنوز التي فيه ؛ مِن عِلم أصيل وتأصيل ودليل ونقل عجيب ؟ فاستفد يا طالب العلم منه ولا تسمع للمثبط .

ومِن مميزاته :



1) أنه كتاب رجل محدث مِن الدرجة الأولى بل هو مِن علماء الجرح والتعديل ومِن كبار الجهابذة .
2) أنه يورد أقوال التابعين ويعتمد على مصنف عبد الرزاق وابن أبي شيبة .
3) أنه يورد كلام الأئمة .

ومِن المآخذ عليه :

1) أنه يتأول في باب الصفات فلا تؤخذ منه العقيدة . قال ابن تيمية : " أبو الحسن الأشعري أحسن حالاً مِن ابن حزم الظاهري " .
2) أنه تساهل بل وهِم في موضوع الغناء فأباحه والقول الصحيح على خلاف ذلك .
3) أنه نفى القياس وتمسك بالظاهر .
4) أنه طعن في بعض العلماء رحمهم الله ، حتى قال بعض العلماء " سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان" .

_ 4- سبل السلام شرح بلوغ المرام

وهو مِن أحسن شروحه التي وصلتنا ، لكن ينقصه : تحقيق المسائل تحقيقًا أكثر مما ذكر ، وبسط الشرح على الأحاديث لأنه ربما يأتي في بعض الأوقات بسطر أو سطرين أو ثلاثة على الحديث ، وينقصه كذلك قوة نسبة الأقوال إلى أصحابها فربما تختلف عليه الأقوال فينسبها لغير أصحابه .

_ 5- ومِن شروحه (نيل الأوطار) :

وهو أحسن ما كتب في فقه الحديث إلى الآن ، وحبذا أن يجعله طالب العلم مرجعًا له .

ومِن مميزاته :

1) التكلم على الحديث تصحيحًا وتضعيفًا وجرحًا وتعديلاً .
2) إيراد أصول الفقه وقواعده وقواعد الاستنباط ودلالات الألفاظ .
3) ذكر كلام العلماء وآرائهم والترجيح بينها .

_ 6- فتاوى ابن تيمية

حدّث عن هذا الجهبذ صاحب العبقرية الفياضة بما استطعت ، وفي فتاواه قسم للفقه مرتب على ترتيب كتب المتأخرين مِن فقهاء المذهب الحنبلي ، وكتبه تجمع الفقه وعصارة الإشراق العلمي والتحقيق والإبداع على مر القرون فهذا الرجل قد آتاه الله قوة علمية متناهية وصدقًا وإخلاصًا وفهمًا ثاقبًا وحماسًا للإسلام .

لكن لماذا لم يؤلف ابن تيمية كتابًا جامعًا في الفقه ؟



لم يُعلم عن ابن تيمية أنه ألف كتابًا جامعًا في الفقه مِن أول أبوابه إلى آخره ، ربما لأنه كان مشغولاً بقضايا أهم ، فهوى يرى أن كتب الفقه موجودة على المذهب ، وأنها مبسوطة ومختصرة ومتوفرة لكن الأهم مِن ذلك – كما يبين – مسائل الأصول في المعتقد ونصرة السنة والرد على المخالفين مِن الكفرة والمبتدعة الضلال ، وكان هذا شغله الشاغل ، فلم يكرر نفسه أو يكرر المكتبة الإسلامية ، بل جاء بالجديد المؤصل النافع المفيد وأتى بشيء لم يكن موجودًا مِن قبله ، وسد على الأمة فراغًا كبيرًا وبنى لها صرحًا مِن التأصيل العلمي والتأليف النافع المفيد ، ولم يشرح ابن تيمية كتابًا فيما – أعلم – إلا (العدة) شرح منه جزءًا ولكنه لم يشرح كتابًا فقهيًا كاملاً مِن أوله إلى آخره على حد علمي ، لأنه اشتغل بما هو أهم وأعظم كالدعوة ونشر العلم والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .



_ 7- زاد المعاد

وهو كتاب يصح أن نلحقه بالفقه في الاستنباط ويصح أن نلحقه بالسيرة . يقول أبو الحسن النووي فيما نقل عنه : " لا أعلم كتابًا بعد كتاب الله دّبّج مثل كتاب زاد المعاد " . وقد حققه الأرنؤوط .

_ 8- زاد المستقنع

مِن أحسن المختصرات التي رأيتها واهتم بها أهل العلم في هذه الأيام : (زاد المستقنع) وهو كتاب فذ ولكن فيه قضايا ومسائل مرجوحة وليست راجحة ويمكن أن تكون عشرون بالمائة مِن مسائل الكتاب ضعيفة عند أهل العلم مِن المحدثين .

أما مميزاته فهي :

1) أنه اقتضب العبارة ولم يبسطها بحيث يتعب مَن يريد أن يحفظه .
2) أنه أكثر مِن إيراد المسائل حتى أورد ألوفًا منها . وقد علق عليه الشيخ البليهي – رحمه الله وجزاه خيرًا – في كتابه (السلسبيل) فأتى بكل عجيب ، ولو لم يكن له بعد الإسلام حسنة إلا هذا الكتاب لكفاه فخرًا .

والكتاب عليه حاشية عجيبة لابن قاسم – رحمه الله – خاصةً في نقل كلام ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - .

_ 9- الروض المربع شرح زاد المستقنع

ومِن الكتب كذلك كتاب (الروض المربع شرح زاد المستقنع) ؛ وهو كتاب جيد ومبسوط لكن فاته الاهتمام بالأحاديث حتى أتى بأحاديث موضوعة وباطلة مثل حديث : ((أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)) ، فكان لا بد مِن تبيين الصحيح مِن الضعيف فذكر الأحاديث التي لا تصح مثلبة يقع فيها بعض الفقهاء .

_ 10- العدة شرح العمدة

ومِن الكتب كذلك : (العدة شرح العمدة) وهو مِن أحسن ما كُتب في هذا الباب وميزته الاختصار بين التطويل والإيجاز . ولكنه يحتاج – كذلك – إلى كثير مِن الأحاديث في المسألة وإلى تخريج الأحاديث وذكر الصحيح .

ضع أمامك عشرة كتب واقرأ في كل كتاب عشر دقائق فهذا أمتع وأفيد

شبكة مشكاة

مَن تواضع للعلم ناله ومَن لم يتواضع له لم ينله

شبكة مشكاة

رابعًا : [illegible] لعلم

أصول مِن أعظم الفنون عند المسلمين ، بل هي ميزان العلم . وهذا العلم له أصل عند الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم ، لكنه ما بُدئ التأليف فيه إلا متأخرًا ، وأول مَن ألف فيه – فيما نعلم – الإمام الشافعي – رحمه الله – في كتابه (الرسالة) .

وطالب العلم لا يستغني في هذا الفن عن ثلاثة كتب : الرسالة للإمام الشافعي ، والموافقات للشاطبي ، وإعلام الموقعين لابن القيم .

فهذه الثلاثة مِن أحسن ما كتب . وهناك أيضًا كتاب عصري مبسط ، وهو كتاب (أصول الفقه) لعبد الوهاب خلّاف .

وعلم أصول الفقه مِن علوم الوسائل مثل المصطلح وعلوم القرآن ، فينبغي لطالب العلم أن يعطي لكل شيء قدره ولا يغفل عن المقاصد مِن القرآن والسنة والمتون والشروح .



خامسًا : كتب الرجال

يعتبر كتاب (الكمال في أسماء الرجال) مِن أعظم الكتب عند المسلمين في علم الرجال ، وهو لعبد الغني بن سعيد المقدسي ، وهو البحر بجواهره ودرره ، لكن فيه إغفالاً وإخلالاً ، فجاء المزي – مِن علماء القرن السابع ومِن زملاء ابن تيمية – فهذبه وزاد عليه ونقحه ووشحه ودبجه فأحسن كل الإحسان وذلك في كتابه (تهذيب التهذيب) ثم ألف (تقريب التهذيب) .

_ 1- تذكرة الحفاظ للذهبي

وهي تُعنى بمن حفظ الحديث ، وكان حجة فيه وله القول في التضعيف والتصحيح والجرح والتعديل ، فلا يأتي فيه إلا بالجهابذة .

_ 2- سير أعلام النبلاء

وهو كتاب مطبوع محقق ، يقع في خمسة وعشرين مجلدًا ، وهو مِن أحسن الكتب في الرجال ، لا يتقيد بصنف أو طائفة معينة مِن الناس ، بل يورد العلماء والزهاد والعباد والملوك والوزراء والشعراء والأدباء والأطباء والفلاسفة والمتكلمين والمفسرين والمحدثين والحمقى والمغفلين والزنادقة والملاحدة .
مسح ما يقارب ستمائة سنة مِن الزمان ومِن المكان مِن حدود الهند إلى الأندلس ، ودخل بلاد المغرب وخراسان وبلاد ما وراء النهر .

مميزاته :

1) أنه يفصّل الترجمة على المترجم تفصيلاً لا يعطيه أكثر مِن حقه ولا يبخسه ، يقول في الإمام أحمد " شيخ الإسلام صدقًا وإمام السنة حقًا " ، ثم يأتي إلى الفيلسوف الزنديق فيقول : الزنديق فلان بن فلان . ويأتي إلى الشاعر فيقول : شاعر زمانه وأديب عصره .

2) أنه يعلق على الأحاديث فلا يمر على الحديث – في الغالب – إلا ويذكر هل هو صحيح أو ضعيف .
3) أنه يذكر الرواة والعصور والتاريخ كما أنه يذكر كثيرًا مِن الفوائد والتعليقات الظريفة فهو كتاب ممتع يربي ملكة الذكاء والفهم والاستنباط بالإضافة إلى معرفة الرجال .





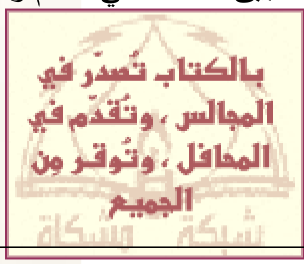
سادسًا : كتب الضعفاء والثقات

أما كتب الضعفاء فقد ألف فيها الكثير مِن العلماء ، ومنها – على سبيل المثال – كتاب (الضعفاء) لابن حبان ومِن أشهرها (ميزان الاعتدال) للذهبي ، و(لسان الميزان) لابن حجر . أما كتب الثقات فمن أوسعها كتاب (الثقات) لابن حبان وهو مِن أحسن ما كتب .



سابعًا : كتب التاريخ والسيرة

ينبغي لِمَن يقرأ التاريخ ألا يكون همه المتعة فحسب ، ولكن عليه بالاتعاظ مِن قصص التاريخ ، فإن الله قصَّ علينا في كتابه لنتعظ ، ثم على القارئ أن يتعرف على سنن الله – عز وجل – في الأمم والدول والملوك فيحلل ما يقرأ ويجمع القرين إلى قرينه والشبيه إلى شبيهه ، ليكون ذا بصيرة ووعي فمثلاً يطالع تطبيق سنة الله في الأمم وهي أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله فينظر في التاريخ ليجد قصصًا كثيرة تؤيد هذه القاعدة ، كم من ماكر حبك لغيره ومكر بسواه فعاد مكره على نفسه وصرع بمثل ذاك المصرع. ومثل قاعدة : إن الله لا يصلح عمل المفسدين ؛

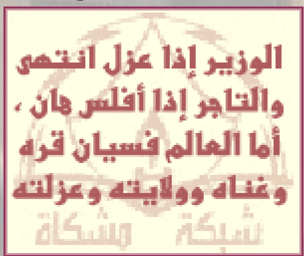


حيث سيجد القارئ في التاريخ أمثلة على ذلك ؛ كالدعوات التي قامت على الفساد والخراب ، فإنها انتهت إلى البوار .
ومثل قاعدة : { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} فإن الظلمة إذا بالغوا في الظلم ووصلوا إلى ذروته حلّ بهم الدمار ، ولحقهم الزوال . وكذلك قوله تعالى { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} فإن القارئ للتاريخ يجد أن هذه القاعدة لا تتخلف ولا تتبدل على مر العصور ، حيث تجد أن أصحاب الدول وسادتها إذا بلغوا في الفساد ذروته والترف نهايته أصابهم داء الأمم قبلهم فحل بهم الوعد مِن الدمار والخراب .
فعلى مَن طالع التاريخ أن يعي ما يقرأ ويطالع قدرة الله في خلقه مِن ولاية وعزل وإكرام وإهانة ونصر وخذلان . أما قراءة التاريخ لمجرد الإطلاع والمتعة فالكل يجيدها ، وهذه القراءة لا روح فيها ولا فقه . ثم إن في قراءة التاريخ فائدة الاعتبار والعظة ؛ حين يتعظ القارئ بما يقرأ فتردعه قراءته عن الظلم لما يرى مِن أحوال الظلمة ، ولا يركن إلى الدنيا لما يرى مِن تقبلها بأهلها ، بل يزهد فيها لما يعلم مِن سرعة زوالها ، وينتظر الفرج إذا حلَّ به كرب لما مِن حصول اليسر بعد العسر ولا يغبط أهل المناصب والجاه والمال لعلمه أنها عاريّة ، وليصلح عمله فهو الباقي معه ، ثم لينظر فيمن ذهب مِن الأمم الذين بقيت أخبارهم وسيرهم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، وليجتهد في إصلاح عمله وحسن خلقه :
وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى



إن فن التاريخ فن لا يستغنى عنه طالب العلم ، وهو فن لا يحتاج إلى كد ذهن ، بل ربما يُقرأ في وقت الاستجمام والراحة ، فكتب التاريخ تعطي قارئها المتعة والواقعية والمعرفة بالماضي والاستفادة مِن التجارب .

وكتب التاريخ المشهورة عند الناس اليوم كثيرة مها : تاريخ ابن جرير ، وتاريخ ابن الأثير ، وتاريخ ابن كثير ، وتاريخ المسعودي ، وتاريخ اليعقوبي ، وتاريخ ابن خلدون .
وأحسن هذه الكتب ثلاثة : تاريخ ابن جرير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والكامل لابن الأثير ، وأحسن الثلاثة (البداية والنهاية) لابن كثير ، ثم يُضاف إلى هذه الكتب ما أتى بعدها مِن كتب التاريخ المفيدة .



1- البداية والنهاية :
مِن أحسن كتب التاريخ كتاب البداية النهاية لابن كثير ؛ لأن صاحبه عالم محدث ثقة ، ثم إن فيه مِن كل زوج بهيج ، مِن سير العلماء والأدباء والخلفاء والملوك وأخبار الدول ويورد مؤلفه مِن كلام الزهاد ما يرقق القلب وفيه أشعار مليحة وطرائف بديعة ، ناهيك عن أن مؤلفه صاحب غيرة دينية حتى إنني رأيت غالب العلماء يقرؤون هذا التاريخ بنهم ، ويستحضرون أخباره ، ومَن قرأه بتدبر صارت له معرفة بأحوال الأمم والدول ، واعتبر بمن مضى واتعظ بتجارب السابقين , واستفاد عقلاً إلى عقله , وتيقن تفاهة الدنيا وسرعة زوالها وجفائها وقله صفائها , وأن الآخرة هي المقر , وأن الجنة هي مقصد الأسى , وأن المناصب والأموال عاريّة , ثم أن من حصل هذه المعرفة يطيب مجلسه , وتغزر فوائده , وتتنوع علومه, وكم من نكتة علم زجرت عن ردى ودلت على هدى ! وكم من بيت شعر حرك في القارئ شجوناً, لكن المخدر لا يحس , والمبنج لا يعي : ما لجرحٍ بميت إيلام !.

2- كتب السيرة :
أما كتب السيرة فأفضلها وأوسعها (سيرة ابن هشام) , وعليها الروض الأنف للسهلي . وكذالك (سيرة ابن الكثير) وتمتاز بذكر الأسانيد إلا أن هذه الأسانيد تجعلها طويلة لا تناسب كل الناس وإنما تناسب المختصين .

ومن أبدع ما كتب في هذا الباب كتاب : (دلائل النبوة) للبيهقي , وقد طبع في ما يقارب تسعة أو عشرة مجلدات , وحقق تحقيقاً جيداً , والكتاب كما يقول عنه الذهبي : فيه نور وشفاء لما في الصدور .
أما كتاب (السيرة الحلبية) فهو في ثلاثة مجلدات , لكن صاحبه أوغل في الصوفية وذكر كلام البوصيري ونظمه وسكت عنه , وأتى بكلام بعض الصوفية عن الأغيار والأنوار والأقطاب و الأغواث , وأيضًا لم يهتم بالتعقيب على الأحاديث وذكر درجتها من الصحة , بالإضافة إلى أنه أورد بعض القصص التي لا تصح . ومن كتب السيرة المعاصرة كتاب (السيرة النبوية دروس وعبر) لمصطفى السباعي , لكنه كتاب فكري أقرب منه للنقل والأثر . ومن الكتب الجيدة كتاب (الرحيق المختوم في سيرة النبي المعصوم) لصفي الرحمن المباركفوري .
ومن أشهر كتب السيرة (زاد المعاد) لابن القيم , فهذا كتاب ما رأيت أحسن ولا أروع منه, فما أفيده وما أعذبه وما ألذه , خاصة المحقق , ولو طالع معه القارئ (دلائل النبوة) للبيهقي لكن حسنًا.



ثامنًا : كتب المتون والشروح

_ 1- التمهيد لابن عبد البر

من أنفع شروح الحديث كتاب (التمهيد) لابن عبد البر , ففيه من الأصالة , و الاعتناء بأقوال المتقدمين , وحسن السبك , وقوة الترجيح , ما يفوق الوصف , وهو عندي من أعظم الشروح .

_ 2- شروح صحيح مسلم

وأحسن من شرحه الإمام النووي إلا أنه اقتضب العبارة , لكنه لا يرتقي إلى درجة (فتح الباري) في الشرح, وفيه تأويل في بعض الصفات على طريق الأشاعرة فليتنبه له . وكذلك الأبي له شرح لصحيح مسلم مطبوع ، لكنه ليس مشهورًا عند طلبة العلم .

_ 3- شروح صحيح البخاري

وقد شُرح صحيح البخاري فيما يقارب ثمانين شرحًا وأعظم الشروح البارزة عند المسلمين الآن ثلاثة : فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، وهدي الساري للقسطلاني ، وعمدة القارئ للعيني .
فأما (فتح الباري) فقد قيل للشوكاني : ألا تشرح لنا صحيح البخاري ؟ فقال : لا هجرة بعد الفتح ، يعني فتح الباري . وهو مِن أحسن الكتب ؛ حيث أجاد فيها ابن حجر كل الإجادة ، ولو كان عند المسلمين معجزة مِن التأليف لكان فتح الباري ، وهو كتاب بديع جد بديع في إيراداته وقوته العلمية وثقة مصادره ، ولكن مصنّفه تقلب في العقيدة على ثلاثة أحوال : مرةً سكت عن معتقد السلف ، ومرّة أوّل ، ومرة أقرَّ مذهب السلف ، ومرة سكت فلا ندري ماذا يريد ؟! ولكنه – مع ذلك – مِن أهل الخير والصلاح والعبادة والعلم والنبل ، الذين نفع الله بهم الإسلام والمسلمين .

وأما (عمدة القارئ) فيمتاز بإيراد اللغويات والأدب وكثرة الشواهد النحوية ، لكنه لا يرقى إلى درجة الفتح في الحديث ، أما (هدي الساري) للقسطلاني فهو أشبه بالرموز لكن فيه صوفية وروحانية فليُتنبه له وهناك شرح آخر وهو لابن رجب وقد رأيت منه ما يقارب ثلاثمائة صفحة مصورة مِن مخطوطة ، وهو مِن أجود ما كتب ، وجاء فيه بكل عجيب ، وإذا أردت أن تعرف منزلة ابن رجب في شرح الأحاديث فانظر إلى (جامع العلوم والحكم) كيف أبدع فيه إبداعًا عجيبًا .

_ 4- فتح الباري لابن حجر مرة أخرى

هذا الكتاب بين الشروحات كالغرة في وجه الفرس ، اسمه الفتح لأنه فتح مِن الله عز وجل ، لم يأتِ بعده مثله ؛ إذ لا هجرة بعد الفتح ، بلغ الغاية في الضبط والإتقان والتحقيق والتحرير ، حوى مئات المراجع وآلاف المسائل هو سيل لا ينقطع مِن الأفكار والآثار وأمواج تتدافع مِن المعاني والعبر ، يقدمه مؤلفه لكل محب للسنة في شجاعة ، فلا نامت أعين الجبناء ، هذا الكتاب روحاني الأداء ، لأنه مملوء بالصلاة والسلام على الإمام الأعظم ρ وهو جذاب لأنه ينتقل بك مِن روض إلى روض ، ومِن خميلة إلى خميلة ، تبويب للبخاري يسر الناظرين ، وسند كنجوم السماء ، فارجع البصر هل ترى مِن فطور ، وألفاظ للحبيب ρ التي هي أكاليل الكلام وتيجان الألفاظ ثم تحليل دقيق للحافظ جمع فيه الرواية والدراية والنقل والعقل ، في ذكاء عجيب وقدرة فائقة ومهارة بارعة ، ولله در الهمم ماذا أنتجت وكيف أبدعت ؟! ثم خلف مِن بعدهم خلْف يأخذون عرض هذا الأدنى ويتجافون عن مجرد قراءة هذا التراث ، والاطلاع على كنوز هذه التركة ، ثم ينسبون أنفسهم للعلم والعلماء ! ، ألا ما أبعد الهوة وما أكثر الفرق ، فيا طلبة العلم ويا أتباع الرسول ρ دونكم الفتح دنا قطافه وطاب ثمره صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وأعوذ بالله مِن خسة الهمم التي تثاقلت بأصحابها فلا يقرؤون ولا يفهمون ولا يحفظون ولا يعلمون ن ولكن يأكلون ويشربون وينامون ويسرحون ويمرحون { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}





تاسعًا : كتب العقيدة

لا بد لطالب العلم أن يتوفر في مكتبته ثلاثة كتب في هذا المجال وهي :
أولاً : كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب وشروحه ومِن أحسنها (فتح المجيد) وكتب أئمة الدعوة معه .
ثانيًا : معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ، فقد أورد مذهب أهل السنة باستفاضة تامة .
ثالثًا : العقيدة الطحاوية ، فقد أورد معتقد السلف بالجملة ولو أن بعض المسائل تحتاج أن ينبه عليها . وقد نقصه تخريج الأحاديث ، لكنها – بحمد الله - قد خُرّجت ، وليته ترك علم الكلام في أوله إذن لكان أحسن وأحسن .
ومِن كتب العقيدة المعتمدة كتابات ابن تيمية وابن القيم وابن كثير على الإطلاق . وفي كتابات ابن تيمية تجد التنظير العقدي والبسط والسعة .

وأخيرًا

فإن هذه الرحلة التي طفنا بك خلالها عددًا مِن أمهات الكتب ، وفصولاً مِن محطات العلوم ، ما كان الغرض منها إلا أن نسهم معك في الإرشاد إلى ما يناسب وترك ما لا قيمة فيه ، ولا يعني هذا أن ما دون تلك الكتب لا نفع فيه بل إن بحور العلم واسعة ممتدة ونحن على ثقة بحصافتك ودرايتك وسعة أفقك ، فاقطف مِن بساتين المعرفة ما شئت ، وحلّق في رياض العلم أنّى شئت ، واجعل مبتغاك أولاً وأخيرًا رضا الله وطاعته قبل أي شيء .





الفصل السادس
قطوف مِن بستان العاشقين



هذه باقات مِن تجارب الصفوة ، الذين صاحبوا المعرف ؛ وصبروا على القراءة وعاشروا الكِتاب ، ثم أتحفونا بوصاياهم أو ملاحظاتهم أو استنباطاتهم ، مع لمعات مِن الذاكرة، أملتها المعرفة ، وصاغتها المحبة على طروس الوفاء وأداء الأمانة ، لِمَن سأل عنها مِن محبي الفائدة والسائلين عن العلم .

هذه شذرات متفرقة ، وفوائد متنــاثرة
هنا وهناك آليت أن أجمعها في مكــانٍ
واحد لتعمّ الفائــدة ويزيد الانتفــاع ..

علّها تجد طريقـــها إلـــى الأذهـــــان وتتشربها العقول .

رجال أعجبوني

أنا معجب بابن الجوزي الواعظ في علو همته وحُسن تصنيفه وسعة علمه ، وأحسن كتبه عندي (صيد الخاطر) ثم (تلبي إبليس) وليته ترك مدح النفس والدعاوى ، فيكفيه هذا الخلود الذائع والثناء الدائم ، وهو مِن أعظم وعاظ التاريخ وخطباء الدنيا .



وأعجبني الإمام البخاري في توقد ذكائه وقوة فهمه وجودة صحيحه وذيوع شأنه – رحمه الله - .

وأعجبني الشاطبي في كتابيه (الاعتصام) و (الموافقات) فقد أغنت عن آلاف الكتب والرسائل وهكذا ، فكثرة التأليف مع الإعادة والتكرار ما هي إلا مضيعة للعمر في غير طائل .

وأعجبني الحريري في مقاماته ؛ فقد سبق مَن قبله وأتعب مَن بعده وأتى بالعجب العجاب .

وأعجبني الشوكاني في علو همته وكثرة علومه وجلده على طلب العلم وصبره على التحصيل .

وأعجبني الإمام محمد بن عبد الوهاب في تسهيله للعلم وتقريبه الدعوة للناس ومعرفته بما يصلح لزمنه وبُعده عن التشقيق والتكلّف والتنطع .

وأعجبني ابن تيمية الذي ترك للمكتبة الإسلامية تراثًا عامرًا وتركة مباركة ، فهو مِن أكثر مَن ألف على طول تاريخ الإسلام مِن أهل العلم لكنه تأليفٌ جادٌ مفيدٌ باقٍ بإذن الله ن وهو مِن العمل الصالح الذي يبقى لصاحبه ، ولا أعلم عالمًا نفع الله بتآليفه الأمة في عدة فنونٍ كهذا العالم ، صحيح أن أحمد بن حنبل – مثلاً – أو البخاري أو الشافعي أو مالكًا له تآليف نافعة ، لكنها في أبوابها جزاهم الله خيرًا عن الإسلام ، غير أن ابن تيمية ترك عدة تآليف في عدة فنون ، فنفع أهل الإسلام في باب التفسير ، والفقه ، والمعتقد ،

وأصول الفقه ، والمنطق ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، إلى آخر ذلك ، فهو مفيد في عدة أبواب ، نافع في كثير مِن الفنون ، والعجيب في تآليفه أنها سارت بها الركبان ، وصارت حديث الناس ، ودخلت الجامعات ، واستفاد منها أهل العلم على تعدد مشاربهم ، واشتغلوا عليها بين مختصرٍ وشارحٍ ومستفيدٍ وناقلٍ وجامع

_ العلم باقٍ

سُئل أحد المنزوين بين الكتب للدراسة والتأليف بين أقوام لا يعملون مثله : لماذا لا تلتقي بالناس كما يلتقي بغيرك ؟

فأجاب : أأخرج إلى محب متخاذل أو مبغض مخاتل أو منافق مجامل أو حسود مزامل أو جاهل متطاول أو عاقل مماطل ، أو لذي برّ غير عاجل ، أم لجمع حطام زائل بين متكالب عليه وصائل ... ؟

يا ترى أأنفق الوقت – والوقت مِن ذهب – في أجواء تأخذ بالأنفاس ؟ أم في أجواء بين جلاّس أفيد وأستفيد مِن بينها ما هو خير لي وللناس ؟ أما إذا ابتغيت لي باللقاء وفرة المال ، فالمال على زوال ، والعلم باقٍ مدى الأجيال .



وقال بعض البلغاء : العلم عصمة الملوك ، لأنه يمنعهم مِن الظلم ويردّهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويستنبطوا أهله .

وقيل لبزرجمهر : العلماء أفضل أو الأغنياء ؟ فقال : العلماء ، فقيل له : فما بال العلماء بأبواب الأغنياء أكثر مِن الأغنياء بأبواب العلماء ؟ فقال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، وجهل الأغنياء بفضل العلم .

_ العلم كنز

صحب أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الإمام أبا حنيفة النعمان بن ثابت لتعلم العلم على فقر شديد ، فكان ينقطع بملازمته على طلب المعاش ، فيعود إلى منزل مختلّ وأمر قلّ ، فطال ذلك ، وكانت امرأته تحتال له ما يقتاته يومًا بيوم ، فلما طال ذلك عليها وكان خرج على المجلس وأقام فيه يومه وعاد ليلاً فطلب ما يأكل ، فجاءته بغضارة مغطّاة فكشفها فإذا فيها دفاتر ! ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا ما أنت مشغول به نهارك أجمع ، فكُلْ منه ليلاً ، قال : فبكى ، وبات جائعًا وتأخر مِن غدٍ عن المجلس حتى احتال ما أكلوه . فلما جاء على أبي حنيفة ، سأله عن سبب تأخره ، فصَدَقه . فقال له أبو حنيفة : ألا عرّفتني ، فكنت أمدّك ؟ و لا يجب أن تغتمّ فإنه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشور .



قال أبو يوسف : فلما خدمت الرشيد ، واختصصتُ به ، قُدّمت بحضرته يومًا جامة لوزينج بفستق ، فحين أكلت منها بكيت ، وذكرت أبا حنيفة فسألني الرشيد عن السبب في ذلك فأخبرته .

_ كتاب (الجامع بين الصحيحين)

عندي كتاب الجامع بين الصحيحين لصالح أحمد شامي ، وهذا الكتاب هو مرجعي بعد القرآن ، وكنت أتمنى أن أجد كتابًا بهذه الصفة فالحمد لله حصل هذا الكتاب ، فهو صحيح كله ؛ لأنه جمع بين صحيح بخاري وصحيح مسلم ، ثم إنه رتبه ترتيبًا سهلاً ميسرًا ، وعلق عليه تعليقًا خفيفًا ، وأضاف في الحاشية المعلقات في البخاري ، فظهر كتابًا يشرح الصدور ويريح البال ، فمن حفظه فقد حفظ علمًا نافعًا مباركًا ، وحسبك به .

شرح ابن عقيل

كتاب لا يستطيع حل مغلقه إلا العلماء ، مع إيراده مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين ، وشواهده الصعبة عن شعراء يحتاج شعرهم إلى شرح ، فكانت مادته مِن أصعب المواد ، وليت أنّا ندرس كتابًا عصريًا ميسرًا جذابًا قريبًا ، إذن لعرفنا النحو بسهولة ولوصلنا إلى المقصد عن قرب .



عصر السرعة

مِن أراد أن يكتب أو يؤلف فليختصر وليسهل الكلام للناس ؛ لأن البلاغة هي أن يفهمك مَن تكلمه أو تكتب له ، لا نريد تعقيدًا لفظيًا ، ولا نريد كتابة تحتاج عند قراءتها إلى مطالعة المعاجم لفك طلاسمها ، بل نريد أسلوبًا واضحًا مشرقًا سهلاً بسيطًا يفهمه الحاضر والباد ، إن البليغ حقًا هو مَن يفهم كلامه العامة والعلماء ، أما الإغراب وإيراد وحشي الكلام والتفنن في تدبيج العبارة ، فهذا مِن قلة الإدراك وبلادة الحس وجفاف الذوق ، نحن في عصر السرعة ، والناس يخطفون كل شيء خطفًا ، فإذا أردت أن تكتب للناس مائة سطر فاختصر في عشرة أسطر وسهلها ويسرها { وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} .

ثورة المعلومات



كان الكتاب قديمًا خير جليس في الأنام ، ولكن غالب الناس اليوم انصرفوا عن الكتاب إلى المرئيات والسمعيات ، وقد تغير الحال وقلّ القرّاء وكثرت المشاغل وتعقد الوقت ، فنصيحتي لمن استغرق وقته في التأليف أن يهدّئ مِن حماسه ، وأن يختار عملاً صالحًا آخر أنفع وأجدى ، وأن يلمح الفرق بين الماضي والحاضر .

أبواب العلم

مِن العلم ما يُحتاج إليه في وقت عن وقت ، اليوم ، ومنه في الأسبوع ، وفي الشهر ، وفي ما يَختلف مِن شخص إلى شخص ؛ فقد لا يعمل بأحاديث الولاة والتجارة وغيرها ، ولكنها جيدة زيادة العلم ، وتوضع أبواب العلم على هذه



ومنه ما يُحتاج إليه في السنة ، وفي العمر ، ومنه طالب العلم في حياته كلها في معرفة الأحكام ، وفي الطريقة .

أحسن كتب الأحكام

أحسن كتب الأحكام لديّ كتاب : بلوغ المرام للحافظ ابن حجر ، فإنه مختصر محرر مخرّج ، عمّ غالب المسائل ، ثم إن المؤلف اكتفى بحديث في كل مسألة في الغالب ، وساق كلام أهل العلم على الحديث ، وأخذ مِن الحديث الشاهد قط ، وربما أتبع المنسوخ بالناسخ ، والمرجوح بالراجح ، فحُفظ هذا الكتاب والتفقه فيه والاهتمام به لازم لمن أراد معرفة أحكام الدين بيسر وسهولة ، وهذا الكتاب عندي أجود مِن (المنتقى) للجد ابن تيمية ، ومِن (الإلمام) لابن دقيق العيد ، ومِن (المحرر) وغيرها .

رياض الصالحين

لما صدق النووي – رحمه الله – مع ربه ، وخلص في علمه وعمله ، وضع الله لكتبه القبول ، وانتفع الناس به ، وعمّ خيرها وبركتها ، ولا أعلم عند المسلمين كتابًا انتشر بعد القرآن مثل : رياض الصالحين ، فهنيئًا للنووي هذا القبول .

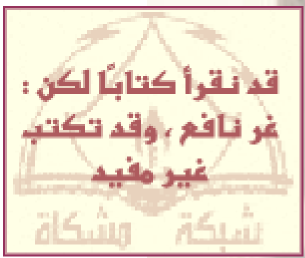
_ مقدمة ابن خلدون

وقفت مليًا مع هذه المقدمة الذائعة ، فوجدت روعة في البيان ، وحسن استقراء لتاريخ ، وسبرًا للحوادث ، مِن رجل تقلبت به الأيام وصارع النكبات واختلف عليه الليل والنهار ، فمقدمته فقه للتاريخ ، وخلاصة لأيام الملوك والدول . وتكرار قراءة مثل هذه المقدمة يمنح القارئ ملكة واعية ناقدة فاحصة ، والعجب أن تاريخه ما يقارب عشر مجلدات كاد أن يُنسى ، وعاشت هذه المقدمة وشرّقت وغربت حتى حللها علماء غربيون وشرقيون ، وأجريت عليها دراسات في الجامعات الأمريكية والبريطانية والفرنسية ، والملاحظ أنك تعود إلى هذه المقدمة فتجدها غضة طرية ؛ لما فيها مِن دقة النظر وسمو العرض وجمال الاستنتاج وخلاصة التجارب ، فليعلم طالب العلم أن التأليف ليس بالكثرة ولا بالتجميع والنقل البحت ، بل هو الإضافة والاستنباط والجدّة والفقه في المنقول والمعقول ، فيا لهذه المقدمة مِن كتاب سار مسير الشمس ، وخلد خلود الحقيقة .



_ لا تغلوا في دينكم

مَن أكثر مطالعة تراجم العلماء وقرأ سيرهم ومناقبهم أُعجب بهم لأنه لا يرى إلا المحاسن ، ثم زاد إعجابه بهم إذا عرف أهل عصره ونقصهم ومثالبهم فتنمو عنده حاسة الإعجاب بهم إلى درجة الغلو ، خاصةً إذا كان أهل التاريخ والسير لا يذكرون أخطاء أولئك العلماء فيظن هذا القارئ أنهم كانوا مبرئين مِن النقص سالمين مِن العيب ، والواجب أن تبقى منزلة العصمة للرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأن يعلم المطلع على سير العلماء أنهم بشر يخطئون ويصيبون ، وإن لم ترد ذكر الزلات والهفوات فلا تغلُ فيهم ، وترحّم عليهم ، واذكر محاسنهم ، ولا تلحقهم بالأنبياء ، وكن عادلاً في الحُكم {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}

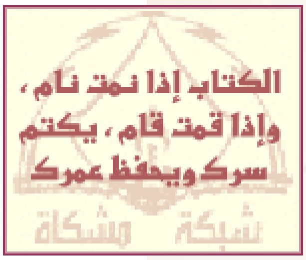


_ أسوة حسنة

إذا قرأت ترجمة عالم أو زاهد أو رجل ، فَضَعْ قوله على قول محمد ρ وفعله على فعله فإن وافق فهو تحصيل حاصل ، وإن خالف فخذ هذا القول أو الفعل المخالف بيديك كلتيهما ، فصُرّ هذه الأقوال والأفعال ومزقها ، ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءًا ، ثم خذ عصاك وعد إلى بيتك .

_ عش زمنًا بلا قراءة

عش زمنًا بلا قراءة ولا مطالعة متأملاً ، متفكرًا ، متدبرًا ، لتظهر لك بعض الأفكار وينضج ما عندك مِن المقروء ، فهذا وقت هضم للمعلومة كالصيام للمعدة ، والتفكر مدرسة العباقرة .



_ ليس كل قارئ مستفيدًا

قد يوجد مَن يقرأ بفهم لكن في علوم لا تنفع ، أو في مواد غيرها أنفع منها ، كالذي يجعل عمدته في القراءة المجلات والصحف والكتب الفكرية المعقدة ، فهذا ليس بيده شيء ، فالعلم شيء والكلام شيء آخر .

_ ترتيب المكتبة

إما على الفنون أو على حروف المعجم أو على المؤلفين ، وليكن لك فهرسٌ إذا كثرت الكتب ودرجٌ للمجلات المفيدة والنشرات ؛ ليسهل مراجعتها عند الحاجة .

_ سُنّـة

لا بد للعلماء والشعراء والمؤلفات المتميزة مِن مضادة ومنادة حتى تشتهر وتذاع وتعرف ، كما قال المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع مِن الأذى   حتى يُراق على جوانبه الدمُ !

وهذه سنة ، وانظر في أحوال علماء الأمة وشعرائها الكبار ومؤلفاتهم المؤثرة ، أما الإنسان العادي فهو أقل مِن أن يصادم :

ويُقضى الأمر حين تغيب تيمٌ   ولا يُستشهدون ولا هُم شهودُ !

لقد كان أبو بكر الصديق يدعى باسمه مجردًا بسيطًا سهلاً وكذلك عمر وعثمان وعلي وسعد وغيرهم ، فهل نقص قدرهم لنقص الألقاب ، أو خفَّ وزنهم لحذف الأوصاف ؟ لا وربي ، فهم في العيون والقلوب وبطون الكتب وعلى رؤوس المنابر ، وفي حلبات المجامع . فالحذر مِن الإسراف المتهالك على أوسمة الألفاظ ، والإخفاق في عالم الذات ، فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .



_ في عصر الكمبيوتر

ما عاد لطالب العلم الذكي نشاط في التأليف مع عصر الكمبيوتر ، الذي تكالب الناس عليه وتركوا الكتاب ، وهو في تطور دائم مع سهولة الاستعمال ودقة الضبط وتوفير الوقت ، وقد ترك هذا الجيل كتب الجهابذة وأعرضوا عنها ، فكيف بكتبنا نحن ؟!

_ المهم في الحديث

المهم في الحديث معرفة صحته أو معرفة ضعفه وعلة هذا الضعف ، وليس المهم حفظ مَن خرّجه كأهل السنن والمسانيد وغيرهم .



_ كتب الأدب النبوي الشريف

كتب الأدب أكثر فائدة مِن غيرها ، أعني بكتب الأدب هنا الأدب النبوي الشريف ككتاب (الأدب المفرد) للبخاري ، ولو جرّدت مِن الأسانيد كان أحسن ؛ فإن الأسانيد مع معرفة درجة الحديث تطويل للطرق وسلب لوقت .

_ كتب التراجم والأدب

مِن فوائد كتب التراجم والأدب والظرف والطرائف مد العقلية التربوية والملكة الاجتماعية برصيد مِن المعرفة لكثير مِن مواقف الحياة والأشخاص والمقامات فانظر إلى كتب الأذكياء ، والحمقى والمغفلين ، وسير أعلام النبلاء ، وأعلام القرون ، وغيرها حتى الكتب التي تتحدث عن الفجار الضلال .

القراءة السريعة

القراءة الخاطفة هي الإلمام السريع بالكتاب أو بالباب في أقصر وقت ، وهي مختصرة للوقت مشجعة على الاستفادة ، وهي ليست قراءة التمكن لكن لها فائدة جمع شتات الموضوع .

اقرأ وافهم

يقول صاحب فن الخطابة : العظمة هي قراءة الكتب بفهم ، ومعنى كلامه أن أعظم ثروة هي المعرفة ، وهي قيمة الإنسان ، فكلما نمت هذه المعرفة زادت قيمته وعلت درجه وغزر فهمه وإدراكه ، وقد رأيت عبر التاريخ أناسًا لا جاه لهم ولا أموال ولا مناصب رفعتهم المعرفة ، كالجاحظ وابن حيان التوحيدي وابن قتيبة وابن خلدون ، وغيرهم .

العجب ممن يجمع ولا يقرأ !

عجبت لبعض طلبة العلم يجمع الكتب وينسخ ويصور ، ويتلهف على كل كتاب ليس عنده ، وهو لم يضبط شيئًا مِن العلم ، وقراءته قليلة ، وإدراكه ضعيف ، لكنه مغرم بالجمع فقط .

الترشيد العلمي

عرفت أستاذًا طاعنًا في السن ، يدرس في الثانوية ، يقرأ قراءة قلّ مَن يمارس مثلها ، ويطالع مطالعة ندر أن يطالعها أحد ؛ فهو يلتهم كل ما يقع على بصره مِن كتب في مختلف الفنون ، وقد جمع مكتبة هائلة ، وجلُّ وقته للقراءة ، ولكنه مبعثر المعلومات ، لا تخرج مِن كلامه بقضية مدرية مترابطة ، أو نظرية راشدة واعية ، أو استنباط رشيد ، ولم يؤلف ولو مذكرة ، ولم يُلقِ ولو خطبة ، وإنما يحفظ كلمة مِن كل كتاب وبيت شعر مِن كتاب آخر ، وقصة مِن تاريخ وحكاية مِن قصص ، والحق أن المقصود مِن المطالعة ثمرتها وفائدتها ونفعها وأثرها ؛ عندما تعود على صاحبها بالنفع في قوله وعمله ، وعلى أمته بالفائدة مِن نصيحة أو درس أو كتاب ، وليس لهذا الإغراق في المطالعة والإدمان في القراءة فائدة ظاهرة ونفع متعدٍّ ، فهو نوع مِن التسلية التي يمارسها الناس كتسليتهم بسباق الخيل ومشاهدة المباريات :



إذا لم يفدك العـــلم خيرًا   فخيرًا منه أن لو قد جهلتا
وإن ألقاك فهمك في مغاوٍ   فليـــتك ثم ليتك ما فهمتا !



كيف تفهم كتابًا مطولاً ؟

بعض كتب العلم طويلة مسهبة كتفسير ابن كثير وفتح الباري والمغني وغيرها ، وإذا أراد طالب العلم فهم هذه المطولات فأمامه طرق منها :

1- أن يكرر هذه الكتب كل كتاب ثلاث مرات أو أربع .

2- ومنها : أن يقرأها قراءة واحدة متأنية ، ومعه مذكرات أو دفاتر يسجل فيها الشوارد والفوائد والنكات العلمية وما يصعب عليه ليراجع فيه أهل العلم .

3- ومنها : أن يقرأ مع زميل – على فترة طويلة – مع المناقشة والمساءلة .

قصتي مع فتح الباري

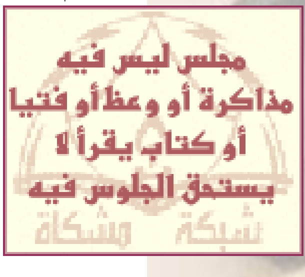
هذا الكتاب عندي مِن أجل الكتب تحقيقًا وتنقيحًا ، صحبته سنوات ، وسامرته ليالي وسافرت معه أيامًا ، كنت إذا بدأت بالقراءة فيه نسيت نفسي ومَن حولي ، فهو أحلى مِن الشهد في فمي ، أعيش مع ابن حجر الحافظ مقررًا وباسطًا ومختصرًا ومنتقدًا ومستدركًا وملاحظًا ؛ مرةً في علم الرجال جرحًا وتعديلاً ، ومرة مع المتن شرحًا وتعليقًا ومرةً مع السند ؛ لبيان العلة والشذوذ والاضطراب والإرسال والإعضال والتعليق والوقف والقطع والرفع والصحة والضعف والوضع ، ومرةً مع التاريخ ذاكرًا الحوادث والوقائع والأزمان والأشخاص بتيقظ وانتباه ، ومرةً مع السيرة العطرة يحلي بذكرها الأسطر في قصص عجيب وسردٍ مدهش ، ومرةً مع الوعظ يهز به القلوب ويبكي به العيون ، وأحيانًا مع التفسير ينقل الصحيح المعتمد ، ويرد الضعيف الغريب ، وطورًا مع اللغة ينقب في سجلها الخالد فيجلو لك الكلمة مقررة مضبوطة مرسومة معادة إلى أصلها واشتقاقها ، وطورًا يتحول الإمام إلى نحوي ذكي ألمعي يحضر لك الخليل وسيبويه والكسائي والزجاج حتى يعفيك مِن اللحن ، ويهدي لك الصواب في نطق العرب ، وأحيانًا مع الفقهاء والمُفتين يذكر أقوالهم مقررًا ومفندًا واردًا ومحاورًا ومجادلاً ، يمحص يفتش ، يقلب النظر ، يعيد ويبدأ في الأقوال ، يعرضها ثم يستعرضها ، ينشر بزها ثم يقطعه ويفصله ويغسله ويكويه ويلبسه ، وأحيانًا مع أصول الفقه في دقة متناهية وصبر جميل وأناة محمودة ، يبرز لك القواعد والضوابط ، وأحيانًا مع الأدب شعرًا ونثرًا ، يرجع لك الرد ، وينظم لك الياقوت في بيت سائر ، ومقولة جميلة ، أو مقطع مائس بالحسن ، هائم بالجمال .



فما أفيد فتح الباري ؛ ما أمتعه ما أحسنه ، ما أجلّه !

كتاب (صفحات مِن صبر العلماء)

ألّفه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وهو كتاب يشحذ الهمة على طلب العلم ، وفيه مِن قوة الطرح وكثرة الشواهد ونصاعة الأسلوب ما يبهر القارئ وفي زمن كساح الهمم وبرود العزائم نحتاج لهذا الكتاب ، فإن مَن قرأه برغبةٍ ، قدح في قلبه شوقًا لا ينطفئ للعلم ، ورغبةً ملحةً للتحصيل . والمؤلّف جوّد الأبواب ، وسرد القصص الآسرة مِن حياة السلف ودبجها بتعليقات ملهبة وشواهد شعرية جذابة ونكت عجيبة ، مع سعة دائرته في المراجع وقوة عرضه البلاغي ، فكان الكتاب بحق رسالة عاجلة وملحة لطلبة العلم ؛ أن يصبروا ويثابروا حتى يصلوا إلى المطلوب ويدركوا المرغوب ، ومن كان في شك مِن كلامي هذا ، فالرجاء مراجعة الكتاب والوقوف معه زمنًا وليس الخبر كالمعاينة .



مع الكتّـاب

ما قرأت لأحد مِن المقدمين والمتأخرين أجمل بيانًا وأندى لفظًا وأعمق معنى مِن الجاحظ ، إنه نادرة الزمان في صياغة الحرف ، وأعجوبة الدهر في نسج الكلام ، غير أنه رقيق دين صاحب مضادات وأوهام وشكوك .

أما أحمد حسن الزيات – مِن المتأخرين – فكتاباته ندية باهرة خلابة ، وما أروع تقابل كلامه واستقلال مقاطعه واختيار جمله .

وأما طه حسين فسلس العبارة ، مستطرد النفس ، حالم الخيال ، لكن الرجل صريع الشبهات .



أما العقاد فله مِن اسمه في أسلوبه نصيب ، وكأن كلامه شعر الفرزدق قوةً في جفاف ، عمقًا في يبس .
وأما الرافعي فغاية في طول النفس وربما أغرب ، وهو أمة وحده في هذا الفن .
والطنطاوي صاحب أسلوب ساحر ، يدهش العقول وهو قادر على استنزاف دمع العين وحزن القلب ؛ بما يكتب ، وهو عندي منقاد الخاطر ، طليق البديهة ، متدفق القلم .
وأما محمد الغزالي فله قاموس خاص ، فيه جلالة وهيبة ، وهو يجبر الذهن على التلفت ، وإنه لحسن الإيقاع ، رخيم العبارة .
وأبو الحسن الندوي له مدار في العبارات لا يتعداه ، مع اهتمام بالتفخيم والتضخيم والتهويل ، ومع مسحة مِن الروحانية الزاكية .

أحمد مطر

أعارني أحدهم ديوان الشاعر أحمد مطر فقرأت قصائده وأمعنت النظر في بعضها فإذا غالبها شكوى من ظالم بأسلوب ساخر لاذع وإذا هي تفريغ للعواطف وترويح لأزمات القلب والناس يعجبهم هذا لأنه شاركهم همهم وعبر عن قضيتهم ولكن ليس المقصود ترجمة الأفعال إلى كلام إنما الصحيح تحويل الكلام إلى أفعال من تربية صحيحة ومعتقد حق وإيمان صادق وعطاء وبناء ولا يستقيم الشعر حتى يكون له رسالة وهدف محدد مع إيمان صاحبه بربه واحترامه لدينه وتوقيره لمبادئه أما السب والشتم فالكل يحسنه وما سمعنا ظالم سقط بقصيدة سخرية ولا مصنع أنتج بملحمة أدبية ولا جامعة أنشئت بقصة خيالية إنما الأدب كما قال بعضهم : حمل الميثاق وطاعة الرب ونصيحة الأمة وترك السفاسف وطلب الكمال. وقد هُجي الحجاج بن يوسف بعشرات القصائد فما حركت منه شعرة واحدة ومات ميتة طبيعية على الفراش وقد سُبَّ الحاكم بأمر الله الفاطمي من معاصريه بمئات القصائد فما اهتمَّ لها ولا اغتمَّ فالكلام ترويح للهموم وشكوى للمغموم ولكنه في الأخير كلام والسلام .

(الجاحظ) إشراق عبارة .. ولكن !

أدمنت النظر في كتب هذا الرجل فما وجدت مثله نصاعة بيان وحسن عرض وفخامة لفظ وإشراق عبارة وجزالة إنشاء ولكنه متناقض يسف أحيانا في المعاني ويورد شبهًا وليس له تقوى تعصمه ولا ورع يردعه فربما خدش وجه الدين و لربما هتك حجاب الملة مع إقذاع يورده وفحش يغلبه و اضطراب في معتقده فهو صاحب معرفة لكن لا تتجاوز القلم وصاحب بيان لكن من طرف اللسان ومثله يستفاد من ولا يتابع في مذهبه ومشربه



محمود شاكر والمتنبي

وقفت طويلاً مع كتاب المتنبي لمؤلفه الشيخ محمود محمد شاكر فعجبت لقوة أسره وتدفقه وهياجه الأدبي وهديره العاطفي فالرجل كتب الكتاب بدمه وعرقه وعواطفه وأعصابه فجاء كتابًا ذائعًا مزمجرًا متحديًا ، وهذا يعطيك السر في التفاوت في التأليف مِن نؤلف إلى آخر ، فبعضهم إذا ألّف خلب لبك وسحر فؤادك وأجبرك على أن تؤدي له تحية التكريم ، والحفاوة والتبجيل ، وبعضهم إذا ألّف بردت مشاعره ، وماتت عواطفه ، فوضع بين يديك جثة هامدة لا حراك بها ، مِن بارد القول ، وميت الكلام ، وأكل الميتة حرام ! ، (حرمت عليكم الميتة) .

أبو العلاء المعري وشِعره

سرّحتُ النظر في دواوين أبي العلاء المعري ، فإذا الرجل مريض القلب ، منحرف عن الجادة ، ليس عنده دين يردعه ولا حياء يرده ، يستهزئ – قاتله



الله – بالرسل والرسالات ، ويشكك في صِدق الشريعة ، ويسخر مِن الملة في بذاءة مكشوفة وصفاقة وقحة ، فعلى هواة الشعر أن يحذروا منه ويحتاطوا لدينهم مِن رجسه ، فقد تتبعته في شعره قصصًا حتى خبرت الرجل وعرفت غوره ، فإذا هو ضال في معتقده ، جاهل بربه ، مغتر بنفسه ، أما ذكره للموت : فكلٌ يحسن هذا ويعرفه ، حتى فرعون يعرف أنه سوف يموت ، ولكن القضية ما بعد الموت ، والتهيؤ لتلك المواقف التي تجعل الولدان شيبًا ، وإنما حذرتُ مِن هذا الشاعر المتهوّك مِن باب النصيحة الشرعية والأمانة العلمية ، فاحجر على قلبك أن تلج إليه شبهة ، وصُن أبناءك أن تدنسهم لوثة ، وحافظ على دينك أن يُسلب منك وأنت لا تشعر ، ولا تُدخل بيتك إلا كتابًا ترضاه وتأمن عاقبته ، فقد ناصحتك مِن (الأغاني) لأبي الفرج ، ومِن شعر أبي نواس، ومِن هذا الضال أبي العلاء المعري، ومِن أمثالهم صرعى الشهوات والشبهات { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}

طه حسين وكتبه

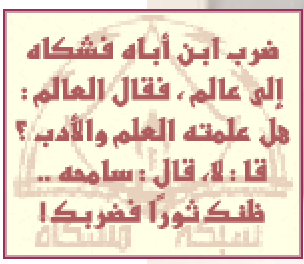
في بداية الطلب كنت أحسن الظن بطه حسين وأسمع كبار الأدباء يثنون على أسلوبه ، فلما قرأت كتبه بإمعان بان لي أن الرجل مريض قلب ، عنده لوثة فكرية ، وفي غدده سم زعاف حتى على ثوابت الدين ، وقد ولى الرجل وجهه شطر الثقافة الغربية وأحبها وشغف بها ، ونادى بني قومه لاعتناق الحضارة الغربية والانسلاخ مِن الشرق وتراثه ، ثم إن الرجل يخفي في نفسه ما الله مبديه مِن أفكار تسعى لهدم ميراث الأمة المباركة وتركتها الربانية ، ومَن أراد أن يعرفه على حقيقته فليطالع ما كتبه الأديب الفذ العبقري مصطفى صادق الرافعي ، ليرى ضرر هذا الرجل ومدى ما سوّلت له نفسه الأمّارة على دينه وأمته . فاحذر ما سطّره وتنبّه إلى تراثه ، فإن السم ف ذاك العسل . وقى الله الجيل شر الدجاجيل .

يا ضيعة الأعمار تمضي سبهللا !

زرت بعض كبار الأدباء المشار إليهم بالبنان ، فرأيته مستغرق التفكير في كلمة غريبة وحشية ، يبحث عن أصل تركيبها ، واسم وادٍ مِن الأودية اندثر ، وقد قارب هذا الأديب الكبير الثمانين ، فعجبت كيف صرف عمره في هذا الفضول الذي شغله عن كتاب الله والعلم النافع والعمل الصالح ، وعلمتُ أن السداد والاختيار توفيق مِن الله عز وجل .

الحشو في التأليف

إلى متى هذه الرسائل المكررة في الماجستير والدكتوراه ، التي امتلأت بها الرفوف ، واشتغل بها طلبة العلم ، ولو صرف الطالب جهده في فهم كتاب مِن كتب سلفنا وتلخيصه ونوقش ، لرأيت العجب العجاب بدل هذه الجزئيات ، ونفخ المجلدات ، والتشبع بهذه المكررات ، وقل لي بربك لو كُلّف طالب الدكتوراه بدراسة وفهم تفسير ابن كثير ، أو المغني ، مدة أربع سنوات ليلاً ونهارًا ، أليس أنفع له مِن تحقيق تاريخ أصبهان ، والعالي والنازل ، والمؤلف والمختلف ، أو البحث في مسألة المدبّج والمضطرب ، والرواية الشاذة ، فليت طلبة العلم اتجهوا لأمهات الكتب دراسةً وفهمًا وتدبرًا ، كنت رأيت علماء فقهاء ، أما تبديد الجهد في الجزئيات وإتخام المكتبة برسائل لا يقرؤها أحد ، ولا يدري بها بشر ، فهذا تمزيق الجهد وتضييع العمر ، والله الموفق .



تأليف الكتب ورأي الشيخ عبد الرزاق عفيفي

غاب مَن ساهم في إبعادنا عن النصوص ، بحسن نية ، حينما أتى ليشرح النص نجح نجاحًا كبيرًا باهرًا في قطع صلتنا بهذا الفيض الغامر المتدفق مِن الكتاب والسنة .

ولقد أصاب العالم الكبير عبد الرزاق عفيفي – رحمه الله – وكان مِن أعظم صفاته رجاحة العقل وسداد الرأي ، أصاب في أمنيته أن لا يكون هناك إلا قرآن وسنة خالصة مِن كلام الناس ، بل ذهب إلى اقتراح رمي كل كتاب غير الوحيين في البحر ! وكنت أستغرب هذا الرأي حتى غامرت في قراءة الشروح والتفاسير والتعليقات والردود ، فإذا ي أبتعد رويدًا رويدًا عن مصادر العلم النافع ومنابع الهداية الربانية كتابًا وسنة ، ولو لم أعش هذه لتجربة لما أعجبني قول الشيخ عبد الرزاق هذا .

ليس كل مكتوب جدير بأن يُقرأ

وقد قالوا في مجال التجارب أن مكتشف الكهرباء توماس أديسون جرب مئات البطاريات قبل اكتشافه الكهرباء ، وكل هذه البطاريات كانت غير صالحة لهذا الاستكشاف ، فقيل له : أضعت العمر والجهد في هذه البطاريات ! ، فقل : لقد استفدت مِن هذه التجربة أن البطاريات تصلح مرة ثانية ، ارتحت مِن العودة إليها ، وعن طريق هذا الإخفاق وجدت النجاح .

لقد كان أهل الفضل والعلم والصلاح إلى عهد قريب يتناولون الكتاب والسنة تناولاً سهلاً ميسورًا بلا شرح ولا حواشٍ ولا زيادات وانظر إلى تأليف الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب وأئمة الدعوة في تقيدهم بالنص وبعدهم عن الحشو ، وعلى هذا سار كثير مِن أهل العلم في تركهم الإسهاب عند تقرير النص تدريسًا وتعليمًا ، ولن أنسى رجلاً صالحًا كان مِن أهل القضاء قديمًا وهو مِن بقية السلف في هديه وسمته ، وكان إمامًا في مدينة الرياض وكان أعمى ، فطلب مِن طالب علم أن يقرأ علينا بعد كل عصر أحاديث مِن رياض الصالحين ، فكان الطالب يقرأ علينا الحديث مجردًا بلا تعليق ولا شرح ، فتنشط أرواحنا وتخشع قلوبنا وتنشرح صدورنا ، ثم بد لهذا الطالب أن يعلق على كل حديث ، ويشرح كلام أفصح الناس ρ ، فلما شرع يشرح جزره الشيخ وصاح به : دعنا مِن كلامك ، اقرأ الحديث فقط ويكفي !! وهذا هو الصواب ، لأن الحديث ما هو إلا كلام مَن بكى لوعظه المنبر وهو مِن عود ، والحديث غني برواياته وإشراقه وجماله عن بسط ألكن وعن شرح متحذلق ، إلا ما دعت إليه الضرورة الملحّة .

إن فكرة تأليف الكتب غير القرآن والسنة فكرة طارئة ، تكلم فيها بعض العلماء ، فقد نقل عن الإمام أحمد بن حنبل أن أنكر تأليف الكتب وكره ذلك والأصل في هذا منعه ρ كتابة حديثه ثم إذنه بعد ذلك للحاجة ، وهذا في الحديث خاصة ، وهو كلام المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، وفي حديث صحيح : ((إنما ضلّ بنو إسرائيل لما كتبوا كتابًا وتركوا التوراة)) ، ولما رأى عمر τ رجلاً يقص على الناس مِن كتاب (دانيال) ضربه بِـدِرّته ، وقال : تقص علينا مِن كتب (دانيال) ، والله يقول : (نحن نقص عليك أحسن القصص) ولم يكن عند الصحابة كتاب غير القرآن ، وكانوا يحفظون الحديث عن ظهر قلب حتى عصر التابعين .

كان ابن خزيمة يقرأ حتى في ليلة زواجه ويوم العيد وفي كل مكان وزمان

حبذا

حبذا (المُغني) لو خُرّجت أحاديثه وحبذا (المجموع) لو ترك وجوه الأصحاب من خراسانيين وعراقيين وحبذا (المُحلى) لو أثبت القياس وترك تجريح الناس وحبذا ابن كثير في التفسير لو أعرض عن بعض الإسرائيليات وحبذا (التمهيد) لو كان مُرتباً وحبذا (زاد المعاد) لو ترك الاستطراد وما سلم من النقض إلا كتاب الله عز وجل { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}

متنزهات القلوب عند ابن دُرَيْد

جاء في كتاب (إرشاد الأريب) لياقوت قال أبو نصر الميكالي : تذاكرنا المتنزهات يوماً وابن دُرَيْد حاضر فقال بعضُهم : أنزه الأماكن غُوطة دمشق وقال آخرون : بل نهر الأُبلَّة وقال آخرون : بل سُغْد سمرقند وقال بعضُهم : نهروان بغداد وقال

من الآن اجعل الكتاب صديقك واهرب من الناس

بعضُهم شِعب بوّان وقال نوبهار بلخ فقال ابن دريد : هذه متنزهات العيون فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟! قلنا : وما هي يا أبا بكر ؟ فقال (عيون الأخبار) للتقي و (الزهرة) لابن داوود و (قلق المشتاق) لابن أبي طاهر ثم أنشأ يقول :

ومَن تكُ نزهــتَــهُ قينةٌ　　وكــأس تحثُّ وكأس تُصَبْ
فنزهتُنا واستــــراحَتُنا　　تلاقي العيون ودَرْس الكتبْ

القراءة التافهة

الانهماك في قراءة الصحف والإغراق في تصفح المجلات والولوع بالدوريات والنشرات الضحلة دليل على الإفلاس العلمي والجهل الثقافي فهذه القراءة الهشة المريضة لا تسمن ولا تغني من جوع لأن أكثر ما يكتب في الصحف والمجلات غثاء كغثاء السيل لغة سوقية صحيفة مبتذلة وفكرة طاردة وطرح ثقيل ، فملل وتكرار وبيل ، وفيه من قتل الوقت وضياعه ما يكفي خسارة ، ثم إن هذه القراءة السطحية تظهر على لغة القارئ وكلامه ومصطلحاته فتراه إذا تحدث كأنه مذيع أو معلق رياضي لأن تركيب عبارات القوم طغى على قاموسه فهو يظهر للجمهور أنه واع ومثقف بزعمه (وجاءوا على قميصه بدم كذب) وهو في الحقيقة صفر في الأصالة العلمية مقفر من المعرفة الرائدة الرشيدة فيا أيها القراء هلموا إلى الكتاب والسنة لتعيشوا الجمال والجلال والكمال { صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ}
ثم أقبلوا على أسفار الجهابذة الرواد من أساطين الملة في المعرفة لتروا عينًا معينًا { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}
أما الصحف والمجلات فمن أراد قراءتها فليمر بعينة على عناوينها العريضة مرور يد الطبيب على المريض :

يطأ الثرى مترفقًا من تيهه　　فكأنه آسي يجبس عليلاً

إن القراءة المبعثرة تخرج مثقفاً ولا تخرج عالماً ، فالقراءة في كل كتاب وكل صحيفة وكل مجلة بلا ضابط تجعل القارئ يحفظ جملاً دون أن يربطها رابط ، وهذه القراءة ليست هي المطلوبة المنتجة.





خاتمة العشق

وهذا أوان الوداع أيها القارئ الوفيَ ولعلك صاحبتنا ، وما أريد أن أشق عليك في هذه الرحلة ، بل أحببت أن أقاسمك همومك برحلة على ضفاف نهر المعرفة وبجولة في بستان العلم ، ما بين زهرة يفوح شذاها وثمرة حلو مجتناها وينبوع عذب رقراق وخميلة مائسة ونسيم بارد عليل لتقول لهواجر صيف الجهل ولوافح قيظ الغفلة الآن : ((ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله)) .

فيما من سعدنا بصحبه وشرَفنا بقراءته لحروفنا إن وجدت زللاً فاغفر وإن عثرت على خلل فاستر فالكريم عذار والنبيل يتغافل والسيد الماجد متاغبٍ لا غبي ، ولعلك عرفت الآن أنا قد نثرنا لك كنوزًا مصونة و أبرزنا لك حسانًا محجبة وأهديناك تحفًا ثمينة وليس لنا إلا حق الدلالة وأجرة التعريف بمواطن الفائدة ، فلا تحرمنا من دعوة حان إهداؤها لصديق حفي بك ولا تبخل علينا بنصح طالما حنَّ لك فأنا وأنت شقيقان من أم العلم البارة رضعنا من ثدي المعرفة الطاهر الهنيء :

فأنت شقيق الروح هل فوق ودّنا وداد وهل بعد التقارب من قربِ
سكنت سويداء القلوب فــلم تدع لحبي مـــزيداً أن يكافئه حبِّـــي

